دوستويفسكي

المجلد الاول

اعادة تنسيق وفصل

مكتبة الرمحي أحمد

قلبٌ ضعيفٌ
١٨٤٨

عدد الصفحات ٧٣

« قلب ضعيف » (Slaboé Serotsé) ،
نشرت هـذه القصـة فى « حوليـات
الوطن » ، المجلد ٥٦ ، فى شـهر
شباط (فبراير) ١٩٤٦

شـــابان ، موظفـــان في ادارة واحـــدة ، كانا يقيمان معا في الطابق الثـالث من احـدى العمارات • أحدهما اسمه أركادى ايفـانوفتش نيفيديفتش ، والثانى اسمه فاسيا شومكوف ••• ان كاتب هذه القصة يشعر طبعا بأن عليه أن يشرح للقارىء لماذا كانت احدى شخصيتيه تسمى باسمها الـكامل ، بينما لا يطلق على الشخصـية الثانية الا اسم تصغير ، وهو يشعر أن عليه أن يفعـل ذلك حتى يتحاشى على الأقل أن يؤخذ عليه أنه يتصرف تصرفا غير لائق • وسوف يـكون عليه ، فى هذه الحالة ، أن يعين لكل شخصية من هاتين الشخصيتين رتبتها، ثم سنها ، ولقبها ، ووضعها ، وحتى طبعها •••

ولكن كاتب هذه القصة يسمح لنفسه بأن يدخل فى الأحداث رأسا (وهذا يدل طبعا في نظر بعض الناس على أنانية مفرطة) ، فها هو ذا بعد هذا التمهيد يبدأ قصته ، وتلك طريقة يعمد اليها كثير من الكتاب على كل حال •

عشيةَ عيد رأس السنة ، عاد شومكوف الى بيته فى نحو الساعة السادسة من المساء . فاستيقظ أركادى ايفانوفتش الذى كان راقدا على سريره ، ونظر الى صديقه من خلال عينيه نصف المغمضتين ؛ فرأى أنه مرتد أحسن حلة ، وأنه لابس قميصا نظيفا غاية النظافة . حيَّره هذا الأمر طبعا ، وتساءل : ما لفاسيا « مهندما » هذا الهندام ... ولكنه تذكر أن صاحبه لم يتناول غداءه اليوم فى المنزل . وفى أثناء ذلك أشعل شومكوف شمعة ، فأدرك أركادى ايفانوفتش أن صاحبه يتهيأ لايقاظه من نومه .

وها هو ذا يتنحنح فعلا عدة مرات ، ويدور فى الغرفة دورتين ، ثم يُسقط من يده ـ عرضا ـ غليونه الذى كان قد حشاه بالتبغ ، يسقطه فى ركن قرب المدفأة . ضحك أركادى ايفانوفتش بينه وبين نفسه . وقال :

ـ طالت هذه التمثيلية الهزلية يا فاسيا !

ـ ألست نائما يا أركاشا ؟

ـ لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكن يخيل الىَّ أن لا .

ـ يومك سعيد يا أركاشا ، يا صديقى العزيز ... ايه يا رفيقى الطيب ، ايه يا رفيقى الشهم ... انك لا تستطيع أن تحزر ما أريد أن أقوله لك .

ـ لذلك أجهله كل الجهل . ولكن هلا اقتربت قليلاً !

وكأن فاسيا لم يكن ينتظر الا أن يدعى الى الاقتراب ، فسرعان ما اقترب من صاحبه دون أن يسىء الظن فى أركادى ايفانوفتش . ولكن أركادى ما يلبث أن يمسكه من رسغيه بحركة محكمة ، ثم يقتله فيرميه

على السرير ويبقيه على هـــذا الوضع المزعج مبتهجا بذلك ضاحكا منه .
وهتف أركادى يقول :

ـ ها قد أمسكتك .. ها قد قبضت عليك .

ـ أركاشا ، أركاشا . ما هذا الذى تفعله ؟ اتركنى .. أرجوك .. لسوف تفسد ردائى !.

ـ وما قيمة أن يفسد رداؤك ؟ وما حاجتك الى هذا الرداء ؟ لمـــاذا كنت مطمئنا هذا الاطمئنان كله فاتحت لى أن أقبض عليك ؟ قل لى : أين كنت ؟ أين تغديت ؟

ـ أركاشا ، اتركنى .. أرجوك .. أناشدك الله .

ـ أين تغديت ؟

ـ ولكن ذلك بعينه هو ما أريد أن أقصه عليك !

ـ هيا قص اذن !

ـ ولكن اتركنى أولا !

ـ لا .. لن أتركك قبل أن تقص علىّ كل شىء !

ـ أركاشا ، ألا تحس أن هذا مستحيل ، مستحيل تماما ! هنـالك أمور ..

كذلك صاح فاسيا الذى لم يكن قوى الجسم ، محاولا أن يخلص نفسه من بين يدى خصمه القادرتين دون أن يظفر بطائل .

ـ أى أمور ؟

ـ هناك أمور لا يمكن أن يتحدث فيها المرء وهو على هذا الوضـع والا كان يفقد كل كرامة .. لعلك تضحك من هذا الكلام .. ولكن الأمر الذى سأحدثك فيه هام جدا ...

ـ دعنى من الأمور الهامة ! ... ما عساك مخترعا أيضا ؟ أفضـل

أن تروى لى رواية مضحكة • أما الأمور الهامة فلست أحرص عليها • والا فأين الصداقة ؟ قل لى ماذا تفعل بالصداقة ! هيا هيا •• حدّث ••

ـ أؤكد لك يا أركاشا أن ذلك مستحيل •

ـ وأنا لا أريد أن أسمع حديثك •

بدأ فاسيا حديثه يقول ، وهو على تلك الحال من الاضطجاع مقلوبا فوق السرير ، محاولا أن يسبغ على كلامه ما يطيق اسباغه عليه من جد ورصانة :

ـ طيب يا أركاشا ••• ربما قلت لك •• ولكن •••

ـ ما هي المسألة أخيرا ؟

ـ طيب •• المسألة أننى خطبت !

عندئذ رفع أركادى ايفانوفتش صاحبه كما يُرفع طفل ، دون أن ينطق بكلمة ، رغم أن فاسيا ليس قصير القامة ، بل أميل الى الطول ، وان يكن نحيلا • ثم أخذ يطوف به الغرفة حاملاً اياه على ذراعيه ، ماضيا به من أولها الى آخرها ، متظاهرا بأنه يؤرجحه ، مردداً على مسامعه من حين الى حين قوله :

ـ ما رأيك اذا وضعتك فى القماط أيها الخطيب الجميل ؟

لكنه ، وقد لاحظ أن فاسيا أصبح لا يتحرك ويرفض أن يفتح فمه، غيّر رأيه ، قائلا لنفسه انه ربما يكون قد بالغ فى المزاح قليلا ، فأوقفه على قدميه وسط الغرفة ، وطبع على خده قبلة مودة •

ـ هل زعلت يا فاسيا ؟

ـ استمع الىّ يا أركاشا •••

ـ كان هذا من قبيل الاحتفال برأس السنة •

ـ لست أقول شيئا •• ولكن لماذا تقوم بأفعال المجانين هذه ؟ قلت

لك مرارا : أركاشا ليس فى أفعالك هذه شىء من فكاهة ؟ صدقنى : ليس فيها شىء من فكاهة البتة .

ـ ولكن أأنت حاقد على ؟

ـ طبعا لا ... وهل زعلت يوما من أحد ؟ لقد آلمتنى ... هذا كل مافى الامر .

ـ آلمتك ؟

ـ طبعا ... كنت آتيا اليك كما يأتى المرء الى صديق ، طافحَ القلب ممتلىء النفس ، أريد أن أحدثك عن سعادتى .

ـ ولكن أية سعادة هذه ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟

ـ ألم أقل لك اننى سأتزوج ؟

هكذا أجاب بلهجة حادة ، لأنه كان فى الواقع غاضبا بعض الغضب .

هتف أركاشا يقول :

ـ ستتزوج ؟ صحيح ؟ .. لا .. ما هذا الكلام ؟ أنظروا ماذا يقول والدموع فى عينيه ... هيا يا فاسيا .. دعك من هذا الكلام يا صغيرى فاسيوك .. أصحيح ما تقول ؟

وراح أركادى ايفانوفتش يقبل صاحبه من جديد .

قال فاسيا :

ـ هل فهمت الآن ماحدث لى ؟ أنا أعرف أنك طيب ، أنك صديقى ، فجئت اليك فرح القلب مشرق النفس ، فاذا أنت تجبرنى أن أحدثك عن سعادتى مقلوبا على السرير موثق اليدين ، مهان الكرامة .

ثم أضاف فاسيا يقول مبتسما :

ـ طبعا ... ذلك مشهد يضحك يا أركاشا ... ولكننى كنت فى

تلك اللحظة لا أملك نفسى بمعنى من المعانى • لذلك لم أستطع أن أهون من شأن القضية •• لم يكن ينقصك الا أن تسألنى عن اسمها ••• يمينا اننى لأوثر أن أُقتل على أن أذكر اسمها وأنا على ذلك الوضع •

ـ ولكن لماذا لم تقل لى شيئا قبل ذلك يا فاسيا ؟ لو قد أبلغتنى الأمر من قبل ، لما تصرفت تصرف المجانين ذاك !

كذلك هتف أركادى ايفانوفتش آسفاً أصدق الأسف • فقال له فاسيا :

ـ طيب •• طيب •• لا تزعل •• لست حاقداً عليك •• أبدا • أنت تعلم أن مرد هذا كله الى أننى طيب القلب •• لذلك آلمنى جدا اننى لم أستطع أن أروى لك الأمر على نحو ما كنت أحب أن أرويه •• وأن أقص عليك كل شىء بهدوء ، وأن أطلعك على المسألة فى صورة لائقة•• اننى أحبك كثيرا يا أركاشا ، ويبلغ حبى لك أننى ما كنت لأتزوج لولا وجودك معى ، بل لعلنى ما كنت لأوجد أيضا !

كان أركادى ايفانوفتش ، وهو انسان ذو طبيعة حساسة جدا ، يضحك ويبكى أثناء سماعه كلام صديقه • وكذلك كان يفعل فاسيا • تعانق الصديقان ، ناسيين مشاجرتهما الصغيرة •

ـ ولكن احك لى الآن كل شىء ! كيف تم ذلك يا فاسيا ؟ معذرة يا عزيزى ، ولكننى مدهوش ، بل مصعوق ! ••• هل صحيح ما تقول ؟ ألم تلفق شيئا ؟ بلى بلى ••• لا شك أنك تمزح •

بهذا صاح أركادى ايفانوفتش وهو يلقى على صديقه نظرة شك • لكنه ، وقد قرأ فى وجه صديقه تأكيدا لعزمه القاطع على الزواج بأقصى سرعة ، ارتمى على السرير وأخذ من فرط فرحه « يتشقلب تشقلبات » بلغت من القوة أن اهتزت لها جدران الغرفة •

قال أخيرا وقد هدأ :

ـ فاسيا ، تعال اجلس !

ـ حقا يا عزيزى .. لا أدرى من أين أبدأ ...

نظر الصديقان أحدهما الى الآخر منفعلين فرحين .

ـ من هى يا فاسيا ؟

قال فاسيا بصوت يرتجف سعادة :

ـ أسرة آرتميف .

ـ لا ... صحيح ؟

ـ صحيح .. ألم أحدثك عنهم دائما ؟ ثم انقطعت عن الاتيان على ذكرهم ... ولم تلاحظ أنت شيئا ... آه ياأركاشا ! لكم تحملت من عناء فى سبيل أن أكتم عنك الحقيقة ! كنت أقول لنفسى : ربما انهار كل شىء لكننى أحبها يا أركاشا .. نعم أحبها .. واليك القصة (كذلك بدأ يروى القصة متوقفا وقد غلبه الانفعال) . منذ سنة كانت ما تزال مخطوبة . ولكن خطيبها أرسل الى مكان ما فى الأقاليم ، بمهمة رسمية . وقد عرفته أنا .. الخلاصة : ما لنا ولهذا ! .. كان رجلا لا أدرى ما قيمته .. وها هو ذا ينقطع عن الكتابة فجأة ، ويغيب غيابا تاما . انتظروه .. ثم انتظروه .. ثم أخذوا يتساءلون ما عسى تكون دلالة هذا الانقطاع . وفجأة ، منذ أربعة أشهر تقريبا ، عاد .. ولكنه عاد متزوجا ، ولم يجىء اليهم مرة واحدة ! .. شىء لا وفاء فيه ولا نبل .. شىء يبعث على الاشمئزاز ! وما من أحد يدافع عنهم ، أو يقتص لهم ! لقد بكت المسكينة كثيرا . أما أنا فكنت أحبها منذ زمن طويل ! بل كنت أحبها منذ الأبد !

فأخذت أواسيها وأعزيها .. أخذت أتردد عليها كثيرا .. الخلاصة : أنا نفسى لا أعرف كيف تم الأمر .. ولكنها تعلقت بى هى أيضا . ومنذ ثلاثة أيام لم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فأجهشت باكيا وقلت لها كل شىء ، أى قلت لها اننى أحبها .. قلت لها كل شىء .. فأجابتنى بقولها : « وأنا أيضا يا فاسيلى بتروفتش ، مستعدة لأن أحبك .. ولكننى فتاة فقيرة فلا تضحك على .. لقد أصبحت لا أجرؤ أن أدع لهذه العاطفة أن تنشأ فى نفسى .. » . هل فهمت يا صاحبى ؟ هل فهمت ؟ .. وهكذا تعاهدنا» ثم أخذت أفكر ، باحثا عن وسيلة لابلاغ أمها . قالت لى : « الأمر صعب» انتظر قليلا .. ذلك أنها تخاف .. فقد تأبى الموافقة على خطوبتنا . » . وطفقت تبكى . ومضيت الى السيدة العجوز أصارحها بالأمر دون أن أقول للفتاة شيئا . حدث هذا اليوم . وجثونا أنا وليزانكا عند قدميها ... فاذا هى تبارك خطوبتنا .. اسمع يا أركاشا ، يا صديقى ، سنسكن معا .. لن أرضى أن أنفصل عنك بأية حال من الأحوال .

ـ رغم كل شىء لا أكاد أصدق أن هذا صحيح ! يمينا لا أكاد أصدق ! .. ما يزال يخيل الىّ أن .. هل صحيح أنك ستتزوج يا صاحبى ؟ كيف لم أعرف عن هذا الأمر شيئا ؟ يجب أن أعترف لك يا فاسيا أن فكرة الزواج قد راودتنى أنا أيضا .. على كل حال ، مادمت تريد أن تتزوج ، فليكن . أتمنى لك السعادة يا صاحبى ، أتمنى لك السعادة !

قال فاسيا منفعلا وهو ينهض ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ـ ليتك تعلم يا صاحبى مدى ما أشعر به من فرح فى قلبى وغبطة فى نفسى . أنت تشعر بهذا الشىء نفسه ، أليس كذلك ؟ طبعا سنعيش عيشة بسيطة متواضعة ، ولكننا سنكون سعداء . وليس ذلك وهما . لن تكون سعادتنا سعادة خيالية .. ستكون حقيقة ..

ـ اسمع يا فاسيا !

ـ ماذا تريد ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وهو يتوقف أمام أركادى ايفانوفيتش .

ـ تراودنى فكرة ... ولكننى أخشى أن أنقلها اليك . اعذرنى . ولكن يجب أن تبدد شكوكى . مم وكيف ستعيش ؟ انه ليسعدنى طبعا أن أعلم أنك ستتزوج ، بل ان هذا ليملأ قلبى فرحا ... ولكن كيف ستعيش ؟

أجاب فانيا وهو يتأمل نيفيديفتش مدهوشا :

ـ أهذا سؤال يا أركاشا ؟ ماذا دهاك يا صاحبى ؟ ان الأم نفسها لم تتردد أكثر من دقيقتين حين شرحت لها الوضع بوضوح . أحرى بك أن تسألنى كيف عاشوا حتى الآن ؟ خمسمائة روبل فى السنة ، لثلاثة أشخاص ، ذلك دخلهم كله . ذلك كل ما خلفه الأب حين توفى . فهى ، والسيدة العجوز ، والأخ الصغير الذى ما يزال تُدفع له أجور المدرسة ، هؤلاء جميعا يعيشون من هذا المبلغ ... وهم يعيشون مع ذلك ! أنا وأنت نُعد من الرأسماليين بالقياس اليهم ! أنا مثلا يصل كسبى حين يواتينى الحظ الى سبعمائة روبل فى السنة !

ـ معذرة يا فاسيا .. أقسم لك ان خوفى من أن أرى الأمور تتعثر هو الذى يدفعنى الى هذا الكلام ... كيف تحسب سبعمائة ؟ ... أنا لا أرى منها الا ثلاثمائة ..

ـ ثلاثمائة ؟ وجوليان ماستاكوفتش ؟ هل نسيته ؟

ـ جوليان ماستاكوفتش ؟ ولكن هذا العمل يا صاحبى ليس بمضمون .. ليس كالمرتب الثابت البالغ ثلاثمائة روبل ، والذى يُعد كل روبل منه

صديقا أمينا وفيا • لا شك أن جوليان ماستاكوفتش رجل مرموق • وأنا أضمر له كثيرا من الاحترام ، وأفهمه ، رغم أنه يحتل منصبا كبيرا •• بل اننى لأحبه أيضا ، لأنه يحبك فيدفع لك أجر عمل اضافى كان فى وسعه أن يعده عملا رسميا وأن يكلف به أى موظف •• وافقنى يا فاسيا، استمع الى • أنا لا أمزح• صحيح أنه ليس من السهل العثور فى بطرسبرج على شخص يضارع حظه حظك ••• أنا أسلم بذلك (صرح نيفيديفتش بذلك متحمسا أشد التحمس) ••• ولكن ماذا لو أصبح غير راض عن عملك ، أو لم يبق ثمة عمل يعهد به اليك ، أو استعاض عنك بشخص آخر ! ••• لا يعلم الا الله ما قد يحدث ••• الخلاصة أنه اذا كان هناك اليوم جوليان ماستاكوفتش ، فمن الجائز أن لا يكون هناك شىء البتة غدا !

ـ اسمع يا أركاشا ، من الجائز أيضا أن ينهار السقف على رأسينا الآن •••

ـ طبعا طبعا ، أنا لا أقول •••

ـ استمع الىَّ • لماذا تتصور أن يكف عن الاستعانة بخدماتى ؟ اننى أقوم بعملى بهمة ونشاط ••• ومن جهة أخرى فهو انسان طيب ياأركاشا •• لقد أعطانى فى هذا اليوم نفسه خمسين روبلا فضة !

ـ ماذا تقول يا فاسيا ؟ أكان هذا مكافأة ؟

ـ أبدا ••• دفع لى هذا المبلغ من جيبه • قال لى : « انك لم تتقاض شيئا منذ خمسة أشهر يا عزيزى ، فخذ هذا • » تلك كانت كلماته هو نفسه • ثم أضاف : « لا يُعقل أن تقوم لى بهذا العمل عبثا • » ترقرقت الدموع فى عينىَّ يا أركاشا •••

ـ قل لى يا فاسيا ، هل أكملت كتابة النسخة ؟

ـ لا ، لم أكملها بعد .

ـ فاسنكا ، عزيزى ، ماذا عملت اذن ؟

ـ لا تخف يا أركادى . المسألة بسيطة . بقى لى يومان . هناك متسع من الوقت .

ـ ولكن كيف لم تنسخ شيئا حتى الآن ؟

ـ دعك دعك! انك لتنظر الىَّ بعين يبلغ تعبيرها عن الأسف والحسرة أن قلبى ينقلب فى صدرى ! ما قيمة هذا التأخر ؟ انك تحزننى دائما بأوضاعك هذه ! فكر قليلا : أين ما يخيف كل هذا الخوف ؟ سأنجز كل شىء ... أحلف لك ...

صاح أركادى وهو ينهض واثبا :

ـ واذا لم تنجز ؟ ومن ذا الذى أعطاك مكافأة فى هذا اليوم نفسه ؟ وتروح تتزوج ... آه .. آه ..

ـ أقول لك لا تخف ... المسألة بسيطة . سأقوم الى العمل فورا .. أقول لك ان المسألة بسيطة !

كذلك صاح شومكوف هو أيضا .

ـ كيف أهملت هذا الاهمال يا فاسيونكا ؟

ـ هوه ... أركاشا ... هل أستطيع أن أظل لاصقا بكرسيى ؟ هل كان عقلى فى هذا ؟ اننى فى المكتب نفسه لا أكاد أستطيع الاستقرار فى مكانى من فرط خفقان قلبى ! ... أما الآن ، فأحلف لك .. سوف أعمل طول الليل ... ثم سوف أعمل فى الليلة القادمة ، ثم فى الليلة التى بعدها ، فأكمل كل شىء .

ـ هل بقى عمل كثير ؟

ـ أرجوك ، لا تضايقنى ، لا تشغلنى عن العمل ، اسكت .

اقترب أركادى ايفانوفتش من سريره على رءوس الاصابع ، وقعد عليه . ولم يلبث أن أراد النهوض من جديد ، ولكنه لم ينهض ، خشية أن يزعج صديقه . ومع ذلك فانه لا يكاد يستطيع الاستقرار فى مكانه . كان منفعلا انفعالا شديدا . واضح أن نبأ الزواج قد أقلقه كثيرا . لم تكن قد خمدت حماسته بعد . وها هو ذا يلقى نظرة على شومكوف . ونظر اليه صديقه ، وابتسم له ، وهدده باصبعه ، ثم حدّق الى الأوراق مقطبا حاجبيه تقطيبا رهيبا (كأن شدة العمل ونجاح العمل متوقفان على ذلك) .

ان من يراه يحس انه لمّا يستطع أن يسيطر على انفعاله بعد . تناول ريشة أخرى ، واضطرب فى مكانه ، وغيّر جلسته ، وعاد يكتب . لكن يده ترتجف وتأبى أن تسعفه .

صاح فجأة يقول كأنما تذكر الأمر فى هذه اللحظة نفسها :

ـ أركاشا ! لقد حدثتهم عنك .

ـ صحيح ؟ لقد أردت أن ألقى عليك هذا السؤال نفسه .

ـ صحيح ... ولكننى سأروى لك كل شىء فيما بعد .. هذه خطيئتى .. نسيت نسيانا تاما أننى آليت على نفسى أن لا أحكى لك شيئا قبل أن أنجز نسخ أربع صفحات . لكننى فكرت فيك وفيها فجأة ... عجيب يا صاحبى ... اننى لم أقدر أن انكب على الكتابة ... اننى أفكر فيكما طول الوقت !

قال فاسيا ذلك وابتسم • وأعقب ذلك صمت •

صاح فاسيا وهو يضرب الطاولة ويتناول ريشة أخرى :

ـ ما أسوأ هذه الريشة •

ـ فاسيا • اسمع • كلمة واحدة لا أكثر •

ـ ولكن اسرع ••• هذه آخر مرة ••

ـ هل بقى عمل كثير ؟

أجاب فاسيا وقد تقبض وجهه كأنه لا يمكن أن يوجد سؤال مروّع صاعق كهذا السؤال :

ـ هوه ••• أركاشا ••• لا تكلمنى فى هذا • ما يزال هنالك مقدار فظيع •

ـ هل تعلم ماذا يخطر ببالى ؟

ـ ماذا يخطر ببالك ؟

ـ بل دعنا من هذا ، واستمر فى الكتابة •••

ـ ما هى المسألة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ انقضت الساعة السادسة يا فاسيوك !

قال نيفيدفتش ذلك وابتسم وغمز بعينه غمزا ماكرا • لكنه يبدو خجلا بعض الخجل ، لا يدرى كيف سينظر فاسيا الى الأمر •

ـ ماذا تعنى ؟

سأل فاسيا هذا السؤال وقد اصفر وجهه من نفاد صبره ، وانقطع عن الكتابة شاخصا ببصره الى صديقه •

ـ أتعرف ماذا سنفعل ؟

ـ ولكن هلا أفصحت أخيرا ! هلا قلت !

ـ أرأيت ؟ انك فى حالة عصبية ، ولا أحسب أنك قادر على أن تنجز شيئا كثيرا وانت فى هذه الحالة .. انتظر .. دعنى أكمل كلامى.. اسمع .. (كذلك قال نيفيديفتش ملحا وهو ينهض بوثبة ويقطع طريق الكلام على فاسيا) . قبل كل شىء يجب أن تهدىء روعك ، وأن تستجمع قواك . أأنا على حق ؟

صاح فاسيا وهو يدفع الكرسى :

ـ أركاشا ، أركاشا ، أحلف لك لأعملن طول الليل ، أحلف لك .

ـ أعرف ، أعرف ، ولكنك ستنام عند الفجر .

ـ لا .. لن أنام .. لن أنام بحال من الأحوال ...

ـ وأنا أقول انك لن تستطيع المقاومة . ثم انه يجب عليك أن تنام قليلا ، من الخامسة الى الثامنة مثلا . وسأوقظك فى الثامنة . وغدا عيد . فتجلس وتكتب طول النهار ... ثم تكتب فى الليل .. ولكن كم صفحة بقى أن تنسخ ؟

ـ أنظر .

قال فاسيا ذلك وأظهر صديقه على الدفتر مضطربا من الفرح ونفاد الصبر ..

ـ اسمع يا صاحبى ... ليس هذا بالأمر الضخم !

ـ ويوجد أشياء أخرى هناك يا صاحبى ..

بهذا أجاب فاسيا ، وهو يلقى على نيفيدفتش نظرة تائهة ، كأن الاذن بالخروج رهن بمشيئة صاحبه .

ـ كم صفحة هناك ؟

ـ صفحتان ... صغيرتان !

ـ طيب .. سيكون لدينا متسع من الوقت لانجاز هذا كله . سيكون لنا متسع من الوقت .

ـ أركاشا !

ـ فاسيا ، نحن الآن فى عشية رأس السنة الجديدة . جميع الناس فى هذا المساء مع أسرهم ، الا نحن ... نحن وحدنا يتامى منعزلون ، أليس كذلك يا فاسنكا ؟

قال نيفيدفتش ذلك وضمّ فاسيا بذراعيه القويتين .

ـ طيب يا أركاشا ... قررنا ...

ـ فاسيوك .. عزيزى فاسيوك .. ولكننى أريد أن أقول لك شيئا ، فاصغ الىّ ..

غير أن أركادى توقف عن الكلام فاغر الفم ، طافحا حماسة ، عاجزا عن اكمال جملته. كان فاسيا قد وضع يديه على كتفى صاحبه. انه يحدق اليه ويحرك شفتيه كأنه يريد أن يكمل ما لم يستطع صاحبه أن يكمله .

ـ هيه !

ـ عرفنى بهم هذا المساء !

ـ أركادى .. فلنمض اليهم لتناول الشاى . لن نبقى الى أبعد من منتصف الليل ، بل قد ننصرف قبل منتصف الليل .

بذلك صاح فاسيا وهو فى ذروة الافتتان •

ـ أى نمكث عندهم ساعتين ، لا أكثر ولا أقل !

ـ ثم لا نزورهم ثانية الا بعد أن أكون قد أنجزت كل شىء ••

ـ فاسيوك !

ـ أركادى !

بعد بضع دقائق كان أركادى فى أجمل حلة ، وأبهى هندام • أما فاسيا فلم يحتج الى أكثر من المرور على ردائه بالفرشاة ، لأنه كان قد ظل مرتديا ثياب الخروج من فرط اسراعه الى الاكباب على العمل •

خرجا الى الشارع ، وسارا بخطى متوائبة ، سعيدين كل السعادة • الطريق أمامهم طويل ، من بطرسبرجسكايا الى كولومنا • كان أركادى ايفانوفتش يتقدم بخطى كبيرة وقوة واضحة ، فكانت مشيته وحدها تفضح سروره برؤية فاسيا سعيدا مزيدا من السعادة فى كل لحظة • أما فاسيا فلم تكن خطاه كبيرة الى هذا الحد ، ولكنه كان رغم اسراعه يحتفظ بهيئة وقورة ومظهر رصين • لم يسبق لأركادى أن رآه يوما على مثل هذه الصورة من المهابة • انه يشعر نحوه الآن باحترام خاص • ان آفة جسمية ما يزال يجهلها القارىء (ان فاسيا مخلّع الوركين قليلا) كانت تثير دائما فى نفس أركادى شيئا من شفقة وحزن • أما الآن فان هذه العاهة اليسيرة قد زادت حب أركادى له ، وزادت حنانه عليه ، وتلك عاطفة لا شك أن فاسيا يستحقها من جميع النواحى • ان أركادى ليبلغ الآن من السعادة أنه يوشك أن يجهش باكيا • ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن البكاء •

صاح يقول وقد لاحظ أن صاحبه يتهيأ للسير فى شارع فوزنستكى:

ـ الى أين أنت ذاهب يا فاسيا . الطريق من هنا أقصر .

ـ اسكت يا أركاشا ، اسكت !

ـ أؤكد لك يا فاسيا أن الطريق من هنا أقصر .

قال فاسيا وقد لاح فى وجهه سر ، وارتعش صوته من الانفعال :

ـ هل تعلم يا أركاشا اننى أريد أن أهدى الى ليزانكا هدية صغيرة ؟

ـ هدية ؟

ـ اسمع يا صاحبى ، هنا تقع دكان مدام لورو ، وهى دكان أنيقة جدا ...

ـ طيب ؟ ...

ـ قبعة صغيرة يا صاحبى ، قبعة صغيرة ... اليوم رأيت عند مدام لورو قبعة رائعة . سألت عنها فقيل لى ان طرازها يسمى طراز « مانون ليسكو » . انها تحفة ! لها شرائط بلون الكرز ... فاذا لم تكن باهظة الثمن ... بل حتى لو كانت غالية يا أركاشا ..

ـ فاسيا ، يمينا لانت تفوق جميع الشعراء .. هيا بنا ..

استحثا الخطى ، فما هى الا دقائق حتى كانا فى مخزن مدام لورو.

هى فرنسية كحلاء العينين ، مضفورة الشعر . انها تقبل عليهما ، فما تكاد تلقى على الزبونين نظرة حتى تغدو فى مثل فرحهما وسعادتهما ، بل تغدو أسعد منهما اذا جاز التعبير . كان فاسيا ، وهو فى غمرة الحماسة ، مستعدا لأن يقبّل مدام لورو .

قال فاسيا بصوت خافت ، وقد أجال بصره على القبعات الرائعة المعلقة على مساند ، والمصفوفة فوق المنضدة الكبيرة بالمخزن :

ـ يا للروائع ... وتلك ! هل تراها ... تلك السكّرة ؟

قال فاسيا ذلك وهو يشير الى قبعة صغيرة غير التى كان ينوى شراءها فى أول الأمر . ذلك أنه لاحظ من بعيد والتهم بعينيه قبعة أخرى تخطف البصر وتأخذ باللب ، أجمل من سائر القبعات ، موجودة فى الطرف الآخر من المنضدة . بلغ فاسيا من شدة الاشتهاء حين نظر اليها أن من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يخشى أن يسرقها أحد ، أو أن تطير القبعة من تلقاء نفسها ، لا لشيء الا مكرا بفاسيا وكيدا له .

قال أركادى ايفانوفتش وهو يشير الى قبعة أخرى :

ـ فى رأيى أن هذه أجملهن !

ـ مرحى كا أركاشا ! اختيارك هذا دليل على حسن ذوقك ! حتى لقد أخذت أشعر نحوك باحترام خاص . القبعة التى اخترتها فتانة حقا . ولكن تعال انظر هنا .

كذلك صاح فاسيا مبيحا لنفسه أن يمكر بصاحبه هذا المكر البسيط البرىء .

قال أركادى بلهجة الشاك :

ـ هذه ؟

ولكن حين شالها فاسيا عن مسندها الخشبى ، عاجزا عن ضبط نفسه ، حين شالها عن مسندها الخشبى فكأنها تطير من تلقاء نفسها طيرانا لشدة فرحها بزبون متحمس لها هذه الحماسة ، وحين خفخفت أشرطتها وزخارفها وتخريماتها فرحة ، انطلقت صيحة اعجاب من صدر أركادى ايفانوفتش القوى . وها هى ذى مدام لورو نفسها (وقد لزمت طوال

عمل الاختيار كل وقارها وحافظت على جميع ميزات حسن الذوق التى تتمتع بها ، ولم تصمت الا من قبيل التسامح) ، ها هى ذى تكافىء فاسيا الآن بابتسامة تحييذ كبيرة • ان كل ما فيها ، من نظراتها ، الى اشاراتها ، الى ابتسامتها نفسها ، يأتى مصدقا لحسن هذا الاختيار وروعة هذا الانتقاء •• ان كل ما فيها يقول : « نعم لقد أصبت ، وأنت جدير بالسعادة التى تنتظرك ••• »

صاح فاسيا يقول ، ناقلا كل حبه الى القبعة :

ـ ألم تكن كأنها ترمقنا من ركنها القصى ؟ أليس يبدو أنها كانت تختبىء عنا عمدا ، هذه الشيطانة !

وقبّل فاسيا القبعة ، أعنى قبل الهواء الذى يحيط بها ، مخافة أن تفسد قبلته كنزه •

أضاف أركادى يردد ، على سبيل الضحك ، قولا مأثورا كان قد قرأه فى ذلك الصباح نفسه :

ـ كذلك تختفى الفضيلة الصادقة عن أعيننا دائما• وبعد ، ألاننصرف يا فاسيا ؟

ـ مرحى ••• أركاشا ! أنت اليوم فكه اللسان خفيف الروح ••• لسوف تحدث جنونا بين السيدات ، كما يقال ••• أتنبأ لك بهذا ••• مدام لورو ، مدام لورو !

ـنعم يا سيدى ؟

ـ عزيزتى مدام لورو !

استقبلت مدام لورو حماسة فاسيا متسامحة •

ـ لن تصدقى ما أقوله ... ولكننى أعبدك فى هذه اللحظة ... اسمحى لى أن أقبلك .

قال فاسيا هذا وقبّل صاحبة المخزن .

كان لا بد طبعا ، فى هذا الظرف ، من احتفـــاظ مدام لورو بـكل رصانتها ووقارها ، حتى لا يسقط اعتبارها أمام فتى أحمق كهذا الفتى ! وأنا أؤكد أنه كان لا بد أيضا من ذلك اللطف الناعم الرشيق الذى فطرت عليه مدام لورو واستقبلت به حماسة فاسيا . لقد عذرته مدام لورو ، ولم تلبث أن عادت الى هـدوئها بالذكاء واللبـاقة كلتيهما . وهل يمكن أن يغضب أحد من فاسيا ؟

ـ مدام لورو ، ما ثمن هذه القبعة ؟

قالت مدام لورو وقد ثابت الى هدوئها وعادت تبتسم :

ـ خمسة روبلات فضة .

سأل أركادى مشيرا الى القبعة التى كان قد وقع عليها اختياره :

ـ وتلك يا مدام لورو ؟

ـ ثمانية روبلات فضة .

ـ من فضلك من فضلك يا مدام لورو ... قولى أنت ، أرجوك ، أى القبعتين أجمل ، أيهما أرشق ، أيهما أفتن ؟

ـ تلك أترى ، ولكن التى اخترتها أنت أغنج .

ـ اذن آخذها !

تناولت مدام لورو ورقة ناعمة كل النعومة ، فلفت بها القبعة ، وثبتت

الورقة بدبوس ، حتى لكأن الشيء الذى تحمله الورقة أصبح الآن أخف مما كان عليه .

تناول فاسيا اللفة بكثير من التأنى والحذر ، وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس من شدة الهيجان . ثم حيا مدام لورو ومدحها وخرج من المخزن .

ـ أنا انسان يحب الحياة ومباهجها يا أركاشا ! لقد خلقت محبا لمتع الحياة !

كذلك هتف فاسيا وهو يطلق ضحكة صغيرة عصبية لا تكاد تسمع ، ويدور ويلف كثيرا حتى يتحاشى المارة الذين يتصور أنهم يريدون جميعا أن يصدموا قبعته فيجدوها . وردّد بعد دقيقة يقول بصوت فيه الحنان والقوة معا :

ـ اسمع يا اركادى .. أنا سعيد جدا ، سعيد جدا .

ـ وأنا يا فاسنكا ، وأنا يا عزيزى ، أتحسبنى غير سعيد ؟

ـ لا يا أركاشا ... أنا أعرف أنك متعلق بى تعلقا كبيرا .. ولكنك لا تستطيع أن تحس بعشر معشار ما أحس به أنا فى هذه اللحظة . ان قلبى يطفح فرحا ! اركاشا ! أنا لا أستحق كل هذه السعادة ! .. أشعر بذلك ، أعرف ذلك (قال هذا بصوت مخنوق ، وهو لا يكاد يستطيع السيطرة على انفعاله) . قل لى : ما الذى يجعلنى جديرا بهذه السعادة كلها . أنظر حولنا : ما أكثر الناس والدموع والآلام والايام الحزينة الكالحة التى لا تعرف الاعياد ! ... وأنا ... أنا تحبنى فتاة حلوة عذبة .. ستراها بنفسك بعد هنيهة . ستعرف كيف تقدر قلبها النبيل وروحها الكريمة .. لقد ولدتُ فى بيئة متواضعة ، ولكننى الآن أملك رتبة ،

وأملك دخلا مستقلا ، أملك مرتبا ! وقد ولدتُ مع عاهة فى جسمى ، فأنا مخلعٌ الوركين قليلا ، ومع ذلك فهى تحبنى على ما أنا عليه كما ترى. واليوم كان جوليان ماستاكوفتش لطيفا فى معاملتى كل اللطف ، كريما كل الكرم ، يحمل لى أحسن النيات وأطيب المشاعر ! لقد اقترب منى وقال لى : هيه فاسيا (أقسم لقد خاطبنى هكذا : فاسيا !) ، أليس فى نيتك أن تمتع نفسك أثناء الاجازة ؟ » . قال ذلك وضحك . فأجبته : « كلا يا صاحب السعادة . لدىَّ أعمال يجب أن أنجزها ... » . ثم تجرأت فأضفت قولى : « مع ذلك ربما تسليت قليلا يا صاحب السعادة » . يشهد الله اننى جاوبته هكذا . وعندئذ انما أعطانى المال ، ووجَّه الىَّ كلمات أخرى . غرقت فى دموعى يا صاحبى . يمينا لم أستطع أن أضبط نفسى، وأعتقد أنه تأثر هو أيضا . فقد ربت على كتفى وقال لى : « أرجوك يا فاسيا أن تظل حساسا كما أنت الآن ، وأن تظل قادرا على أن تقدِّر...»

صمت فاسيا . وكفكف أركادى دمعة هو أيضا .

تابع فاسيا يقول :

ـ ثم ... اليك ما كنت أريد أن أقوله أيضا يا أركادى ... ولم أقله فى يوم من الأيام . أركادى ! ان صداقتك تملأ قلبى وتغمر نفسى .. وأنا من شدة سعادتى بذلك أشعر أننى ما كان لى أن أستطيع الحياة على هذه الأرض بدونك ... لا .. لا ... لا تقل شيئا يا أركاشا . اسمح لى أن أصافحك وأن أشد ... كرك !

واضطر فاسيا أن يقطع كلامه من جديد ، فقد كان أركادى يتهيأ لتقبيل فاسيا ، وكانا يقطعان الشارع من رصيف الى رصيف ، فاذا بصرخة حوذى تدوِّى على مقربة منهما ، فيهرعان الى الرصيف مروَّعين . والحق أن أركادى قد سرَّ بهذا . فان اكثار فاسيا هذا لم يكن له ما يسوِّغه غير

ظروف خارقة . أما هو فكان يشعر بشيء من الضـــيق . انه يدرك أن ما فعله في سبيل فاسيا حتى اليوم كان قليلا . حتى لقد أحس بالخجـل حين شكره فاسيا من أجل ترهات كهذه ! على أن الحياة ما تزال أمامهما! .. فتنفس أركادى الصعداء ، وأطلق من صدره آهة تخفف وفرح .

لا شك أن وصولهما لم يكن متوقعا . والدليل على ذلك أن الاسرة كانت قد بدأت تناول الشاى . ومع هـذا فما أكثر ما يحـدث أن يكون المسنّون أبصر بالأمور من الشباب ... وأى شباب ! كانت ليزانكا تؤكد أنه لن يجيء . فهى تقول لأمها : « لن يجيء يا ماما ، قلبى يقـــول لى ذلك » . أما أمها فكانت تردد دائما أن قلبها هى يقـــول لها خلاف ذلك تماما ، فلا بد أن يجيء ، ولن يستطيع أن يستقر فى مكانه هادىء البال، وسيهرع اليهم حتما ، لا سيما وأن المكاتب مغلقة ، فاليوم عشية عيد رأس السنة ! وحتى حين فُتح الباب لم تكن ليزانكا تتوقـع أن تراه . فلمـا رأته لم تصدق عينيها ، واستقبلته لاهثة الأنفاس خافقة القلب كعصـــفور أسير ، محمرّة الوجه كثمرة كرز (وهى تشبه الكرز على كل حال) .

رباه ! يا للمفاجأة الجميلة الممتعة ! وانطلقت من شفتيها الصغيرتين آهات فرحة ... قالت وهى ترتمى على عنق فاسيا : « يا لك من مخادع يا حبيبى ! » ... ولكن تصوروا دهشتها واضطرابها حين رأت أركاديا واقفا وراءه ، خجولا وجلا كأنه يريد أن يختبىء . يجب أن نذكـر فى هذه المناسبة أن أركاديا شاب تعوزه الثقة بنفسه فى حضور النساء ، تعوزه كثيرا ، حتى انه فى ذات مرة ... ولكننا سنتحدث عن هذا فى حينه . ضعوا أنفسكم فى مكانه مع ذلك ، تروا أن خجـــله ليس فيـه شىء من سخف . لقد كان هناك ، واقفا فى حجرة المدخل ، غريب الملابس بحذائيه المطاطين ورداثه العريض وطاقيته التى من فراء ، وعمرته التى تغطى العنق والأذنين والتى أسرع يخلعها كيفما اتفق من جهة أخرى . ثم لقد كان

حلقه ملفوفا بعصبة تغطى الأنف ، عصـــبة صفراء من صوف محبوك ، دميمة جدا ، كان قد عقدها ، فوق ذلك ، فى ظهره ! كان لا بد له أن يخلع هذه الأشياء كلها ، وأن ينضوها عنه بأقصى سرعة ، وأن يقدم نفسه تقديما لائقا ، فما من انسان الا ويجب أن يظهر للناس بأحسن منظر • وهناك ، مع ذلك ، فاسيا ، فاسيا الذى لايطاق ، فاسيا المزعج ، فاســيا المير الذى لا يحتمل رغم أنه لطيف وطيب جدا •

صاح فاسيا يقول :

ـ هذا صديقى أركادى يا ليزانكا • ما رأيك فيه ؟ هو خير صديق لى • قبليه يا ليزانكا ••• قبليه ما دمت أقول لك ذلك ••• لسوف تقبلينه راضية مختارة حين تعرفينه مزيدا من المعرفة •

ما العمل فى مثل هذه الحالة ؟ قل لى ناشدتك الله ؟ ما عسى يكون رد أركادى ايفانوفتش ، هو الذى لمّا يكمل نزع منديله بعد ! أؤكد لك أن هذه الحماسة الطافحة فى فاسيا تربكنى • صحيح أنها دليـل على أنه امرؤ طيب القلب ، ومع ذلك فان المرء ينزعج منها ، بل يضيق بها !

وأخيرا دخل الشابان كلاهما • أظهرت العجـــوز أنها سعيدة جدا بمعرفة أركادى ايفانوفتش • لقد سمعت عنه كثيرا • وهى ••• لكنها لم تستطع أن تكمل جملتها ، لأن صيحة فرحة قد دوّت فى الغرفة ، فقطعت كلامها • رباه ! ما أجملها !

كانت ليزانكا واقفة أمام القبعة بعد أن نزعت عنها ورقتها الحريرية •• انها ضامة يديها الصغيرتين وقد لاح فى وجهها معنى مؤثر ، برىء ، ساذج ، كأنه بسمة للملائكة ••• لماذا لم يوجد عند مدام لورو قبعة أجمل من هذه القبعة أيضا ؟

دعك من هذا الكلام ! أين يمكن أن تجد قبعة أجمل منها ؟ حقا

انها لتتجاوز كل حد • ان مثل هذا العقوق لدى العشاق يغضبنى قليلا، بل يحزننى أيضا • انظروا بأنفسكم : أين يمكن أن توجد قبعة فى مثل هـذه الفتنة والروعة ! أنظـروا ! •• ولكن لا •• ان ملاحظـاتى هذه لا لزوم لها • هم الآن جميعا من رأيى • لم يكن ذلك الا ضلالا عارضا، الا ضبابا مضللاً ، الا خطأ طارئا ••• آنا مستعد كل الاستعداد لان اغفر لهم ذلك •• هلا نظرتم (لا تؤاخذونى ، فأنا ما زلت أتكلم على القبعة) : هى من نسيج دقيق خفيف ، لها عصبة بلون الكرز ، مغطاة بتخريم ، مارة بين القبة والحواشى ؛ وفى الخلف عصبتان أخـريان طويلتـان عريضـتان تسقطان على النقرة وتنهدلان حتى العنق ••• ولكن يجب دفع القبعه قليلا الى الوراء لتكشف عن الجبين ••• هلا نظرتم ! ولكنكم لا تنظرون •• فيما أرى • أحسب أنكم لا تحفلون بالأمر •• ثم ان انتباهكم مشدود الى جهة أخرى • انكم ترون دمعتين كبيرتين ، كأنهما لؤلؤتان ، تلتمعان فجأة فى عينين سوداوين مخمليتين ، ترتعشان لحظة على الأهداب الطويلة ثم تسقطان برفق على النسيج الخفيف خفة الهـواء ، الذى صـنعت منه تحفة مدام لورو •• ولكننى أهم أن أزعل مرة أخرى •• ذلك أن هاتين الدمعتين لم تتساقطا من أجـل القبعة وحدها • ليس هـذا هـو الأمر فى نظرى •• لا •• حتما •• يجب على المرء أن يقدم هدية كهذه الهـدية هادىء البال ، غير مهتاج العاطفة •• وحينئذ فقط يمكن أن تُقدر حق قدرها •• على أننى أعترف بأننى أرى أن المسألة مسألة القبعة خاصة •

جلس الجمع • اتخذ فاسيا مكانا له قـرب ليزانكا ، وقعـدت المرأة العجوز الى جانب أركادى ايفانوفتش • ودار الحديث • برهن أركادى ايفانوفتش على أنه فى مستوى الموقف • انه ليسرنى أن أنصفه • ما كان يُنتظر أن يكون لبقاً هذه اللباقة كلها • فبعد أن قال بضـع كلمـات عن فاسيا ، أخذ يتحدث حديثا رائعا عن جوليان ماستاكوفتش ، المحسن اليهم؛

وبلغ حديثه من الحسن والذكاء أن الموضوع لم يُستنفد حتى بعد انقضاء ساعة من الزمان .

ليتكم رأيتم كم بلغ أركادى ايفانوفتش من اللباقة والرهافة فى وصف بعض خصائص جوليان ماساكوفتش ، وهى خصائص تتصل بفاسيا اتصالا مباشرا أو غير مباشر . لذلك سُحرت العجوز بكلام آركادى ؛ حتى لقد اعترفت بذلك لفاسيا : نادته جانبا وقالت له ان صديقه فتى فذ ، وانه من أحب الشباب الى القلب ، وانه قوى جاد على وجه الخصوص . فبلغ فاسيا من السرور بهذا الكلام أنه لم يستطع أن يمتنع عن الانفجار ضاحكا ضحك الفرح الا فى كثير من العناء . لقد تذكر كيف استطاع أركاشا « القوى جدا » أن يقلبه على سريره مفتولاً منذ نصف ساعة .

وبعد ذلك غمزت العجوز الطيبة فاسيا طالبة منه أن يلحق بها الى الغرفة المجاورة . يجب أن نعترف أنها بهذا قد مكرت بابنتها ليزانكا . ولا شك أنها قد غدرت بها ، من فرط طيبتها ، ذلك أنها قررت أن تظهر فاسيا ، خفية ، على الهدية التى أُعدتها له ليزانكا بمناسبة عيد رأس السنة . ان الهدية محفظة خيطت بها لآلىء دقيقة وقصب مذهب ، وازدانت برسم بديع خلاب ، فمن جهة تُرى صورة وعلٍ يثب ، صورة جميلة تشبه الوعل كثيرا ؛ ومن جهة أخرى تُرى صورة جنرال شهير ، وهى صورة جميلة أيضا تشبه الجنرال شبها كبيرا . ولن أتكلم عن حماسة فاسيا حين رأى الهدية .

وفى أثناء ذلك ، فان الذين لبثوا فى الصالون لم يضيعوا وقتهم سدى . اقتربت ليزانكا من أركادى ايفانوفتش ، وأمسكت كلتا يديه تشكره شكرا حارا . فاستطاع أركادى ايفانوفتش أن يفهم أخيرا أن الأمر يتعلق مرة أخرى بصديقه العزيز فاسيا . كانت ليزانكا تبدو منفعلة

انفعالا شديدا • لقد سمعت عن أركادى ايفانوفتش أنه شديد الاخلاص لخطيبها ، وأنه يحبه كثيرا ، وأنه يعتنى به عناية كبيرة ، وأنه بنصائحه الحكيمة يسدد كل خطوة من خطواته ، وأنها ، هى ليزانكا ، لا يسعها الا أن تعبر له عن عظيم امتنانها وعميق شكرها • وانها لتأمل أن يحبها أركادى ايفانوفتش هى أيضا ، وأن يخصها بجزء يسير من حبه لفاسيا• ثم أخذت تلقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة ، تريد أن تعرف هل يعنى فاسيا بصحته ؟ وأعربت عن بعض مخاوفها من فرط الحماسة والحرارة فى طبعه، ومن جهله بالناس والحياة حوله • وصرحت بعد ذلك أنها ستسهر عليه فى كثير من الاهتمام ، وأنها ستحميه وستدلله ، وأنها أخيرا تأمل من أركادى ايفانوفتش أن لا يتركهما ، بل تأمل منه أيضا أن يقيم معهما •

صاحت تقول بسذاجة وهى فى غمرة من الحماسة :

ـ لن نكون نحن الثلاثة الا واحدا •

وكان لا بد من الانصراف مع ذلك • حاولوا منعهما من الانصراف طبعا ، ولكن فاسيا صرح بلهجة قاطعة أن بقاءهما مستحيل• وأكد أركادى ايفانوفتش قول صاحبه • وكان طبيعيا أن يسأل أهل الدار عن سبب ذلك، فسرعان ما عرفوا أن هناك عملا عهد جوليان ماستاكوفتش الى فاسيا بانجازه ، وهو عمل مستعجل ، خطير غاية الخطورة ، يجب الفراغ منه بعد غد فى الصباح ، وأن فاسيا لم يكمل هذا العمل حتى الآن ، بل لقد أهمله اهمالا تاما • فلما سمعت الأم هذا الكلام أطلقت صرخة كبيرة • أما ليزانكا فقد ظهر فى وجهها الجزع والهلع ؟ وأخذت من فرط قلقها تحث فاسيا على الانصراف • غير أن القبلة الأخيرة لم تفقد من ذلك شيئا غير الطول ، أما حرارتها فلم تنقص •

ما ان خرج الصديقان حتى أخذا يتبادلان التعبير عن مشاعرهما

وانطباعاتهما • وذلك أمر طبيعي على كل حال • فأما أركادى ايفانوفتش فقال انه جُن حبا بليزانكا •• وهل غير هذا الصديق المحظوظ ، فاسيا ، يمكن أن يُسرَّ اليه صديقه بذلك ؟ وكذلك كان : صرح أركادى لفاسيا بكل شيء ، دون أى تحرج • فضحك فاسيا كثيرا ، وأظهر سروره بذلك وابتهاجه له ؛ بل أضاف أن هذا حسن جدا ، فان صداقتهما ستقوى الآن مزيدا من القوة •

قال اركادى ايفانوفتش :

ـ هل فهمت يا فاسيا ؟ اننى أحبها بقدر ما أحبك • ستكون ليزانكا ملاكى الحارس ، كما هى ملاكك الحارس ، لأن سعادتكما سترتد الىَّ ، فتبث الدفء وتشيع الحرارة فى نفسى • ستكون لى ربة البيت ، وستنوى سعادتى على كفيها • أرجو أن تقودنى كما تقودك أنت، أرجو أن توجهنى كما توجهت أنت • لن تكون صداقتى لها وصداقتى لك بعد الآن الا صداقة واحدة • أنتما فى نظرى واحد • سيكون لى بعد اليوم صديقان أحبهما لا صديق واحد ••

قال أركادى ذلك ثم صمت وقد غلبه الانفعال• شعر فاسيا باضطراب شديد فى أعماق نفسه • الحق أنه لم يكن يتوقع تصريحا كهذا التصريح من أركادى ايفانوفتش • لقد كان أركادى لا يجيد الكلام كثيرا ، وكان يبدو عدوا لكل نوع من أنواع الاسترسال فى الأحلام • أما الآن ، فقد أخذ يحلم ، وان أحلامه لمن أكثر الأحلام اشراقا وتفاؤلا •

وتابع أركادى كلامه يقول :

ـ سوف ترى كم أرعاكما وكم أعتنى بكما كليكما ! أولا سأكون عرَّاب جميع أولادك •• ثم يا فاسيا يجب الاهتمام بالمستقبل ! •• يجب

شراء أثاث واستئجار مسكن .. ويجب الحرص على أن يضم المسكن ثلاث غرف صغيرة ، اثنين لكما وواحدة لى . سوف أشرع فى البحث عن مسكن منذ الغد يا فاسيا . سأنظر فى كل مكان الى اللافتات الصغيرة الملصقة على أبواب العمارات .. ثلاثة غرف ؟ بل يكفى اثنتان . لا نحتاج الى أكثر من غرفتين .. وانى لأعتقد يا فاسيا أن كلامى اليوم كان سخفا: سوف نملك مالا كافيا ! لقد أدركت منذ رأيت نظرتها أن ما نملكه من مال يكفينا ! سيكون كل شىء لها ! ما أكثر ما سنعمله كلانا يا فاسيا ، حقا يافاسيا .. نستطيع أن نجازف بخمسة وعشرين روبلا أجر المسكن .. ذلك أن المسكن يا صاحبى هو الأمر الأساسى ! غرف جميلة ... ذلك يجعل الانسان فرحا متفائلا . ثم ان ليزانكا ستكون هى أمينة الخزنة لنا : ما من قرش واحد سيبذَّر ! هل تعلم أننى لن أضع قدمى بعد الآن فى دكان بائع الخمور ؟ من تحسبنى ؟ لا .. لن أضع قدمى فى دكانه بحال من الأحوال . ثم هناك الترقية ، والمكافآت ، لأننا سنعمل فى جد واجتهاد .. كثيرانٍ تحرث الأرض ! تصور (وهنا ضعف صوت أركادى ايفانوفتش وتحطم من شدة الانفعال) ، تصور أن يحصل كل منا فجأة على مكافأة تبلغ ثلاثين روبلا أو خمسة وعشرين ! كلما حصلنا على زيادة ما اشترينا بها تارة قبعة صغيرة ، وتارة وشاحا ، وتارة أجربة ، وهكذا دواليك .. ويجب عليها حتما أن تحيك لى عصبة للعنق .. انظر الى عصبتى هذه ما أبشعها : لقد اصفر لونها وانسلت خيوطها ... لقد فضحتنى اليوم ، هذه العصبة .. وأنت أيضا فضحتنى يا فاسيا ! اخترت اللحظة المناسبة لتقديمى اليها قبل أن أنضو عنى لفعتى ! على كل حال ، ليس لهذا من قيمة !.. لاحظ يا فاسيا أن شراء الفضيات سيقع على عاتقى أنا . فعلا .. لا بد أن أهدى اليكما شيئا .. هذا واجبى .. الشرف يقضى بذلك ! .. ولن يطول أمر حصولى على المكافأة .. هل تظن أنهم

سيعطونها سكوروخودوف! هه! ثم ان هذا اللقلق لن يتخلف عن دفعها الىّ متى أردت . سأشترى لكما يا صاحبى ملاعق من فضة ، وسكاكين جيدة (لا من فضة طبعا ، ولكن متينة) ، وصديرة .. أعنى صديرة لى أنا ، لأننى سأكون وصيفكما .. ولكن عليك الآن يا صاحبى أن تشد عزيمتك . وسأكون اليوم وغدا ، وطوال هذه الليلة ، واقفا وراءك أحمل عصا .. سوف أجعلك تفطس من كثرة العمل . يجب انجاز العمل يا فاسيا ، يجب انجازه بأقصى سرعة يا صاحبى ! حتى اذا فرغت منه عدنا نسهر عندهم ، وسعدنا بذلك كلانا ! .. سنلعب هناك لعبة اللوتو .. هكذا سنقضى سهراتنا .. آه ما أحلى هذا ! لكم يحز فى نفسى أننى لا أستطيع معاونتك فى عملك ! لشد ما أتمنى لو أستطيع أن آخذه عنك ، واكتبه لك ! لماذا ليس خطنا واحدا أيضا ؟

قال فاسيا :

ـ نعم نعم .. يجب أن نحث الخطى ! أحسب أنها الحادية عشرة الآن ... يجب أن نحث الخطى .. الى العمل !

ان فاسيا الذى كان الى ذلك الحين يبتسم تارة ، ويحاول أن يقاطع تدفق صديقه بملاحظة فرحة تارة أخرى ، أى كان متحمساً تحمساً كاملا ، قد صمت فجأة بعد أن قال ذلك الكلام ، أصبح كالأخرس لاينطق بحرف ، وأخذ يغذ الخطى كأنه يركض ركضا حتى يصل الى مسكنه بأقصى سرعة . لكأن خاطرا مشئوما قد راوده على حين فجأة ، وسقط على رأسه المحترق سقوط كتلة من ثلج ، فانقبض صدره انقباضا أليماً .

شعر أركادى ايفانوفتش من ذلك بقلق . لقد أصبح فاسيا لايكاد يجيب على أسئلته المستعجلة ، فهو يكتفى بكلمة واحدة قد لا تمت الى

موضوع السؤال بصلة من الصلات فى بعض الأحيان ، بل قد لا يزيد على أن يطلق صوت تعجب .

هتف أركادى أخيرا :

ـ ولكن ماذا دهاك يا فاسيا ؟ هل يمكن أن تستبد بك الهموم الى هذا الحد ؟

ـ حسبك يا صاحبى ، حسبك ثرثرة .

كذلك قال فاسيا بلهجة حانقة بعض الحنق .

فقاطعه أركادى يقول :

ـ لا تهتم .. لقد لاحظت أنا نفسى أنه يتفق لك أحيانا أن تنسخ صفحات أكثر فى وقت أقصر .. فأى ضير فى هذا ؟ انك تقدر على ذلك .. فى وسعك أن تكتب بسرعة اذا اقتضى الأمر .. ليس من الضرورى أن تجوّد نسخ النص بخط رائع ... سوف تستطيع انجاز العمل ... قد تكون الآن مضطربا بعض الاضطراب ، ذاهلا بعض الذهول ، فالعمل يبدو لك أصعب وأشق .

لم يجب فاسيا بشىء ، بل اكتفى بأن تمتم بين أسنانه ببعض الكلام ، ووصل الشابان مسكنهما وهما فى حالة عصبية ثقيلة .

أكب فاسيا على العمل فورا . وصمت أركادى ايفانوفتش . خلع ثيابه ساكتا ورقد على سريره لا يحول بصره عن فاسيا . انه يشعر بنوع من الخوف يغزو نفسه . تساءل أركادى وهو ينظر الى وجه فاسيا الشاحب والى عينيه الملتمعتين والى حركاته التى تدل على قلق محموم : « ماذا به ؟ ان يديه ترتعشان .. أليس من الخير أن أنصحه بأن يرتاح ساعتين ؟ .. لا شك أن قليلا من النوم سيريحه .. » .

أنجز فاسيا كتابة صفحة • ورفع عينيه عرضا الى ناحيـة صديقه ، فلم يلبث أن خفض جفنيه وعاد يتناول القلم •

قال أركادى ايفانوفتش فجأة :

ـ اسمع يا فاسيا ! ألا تعتقـد أن قليلا من النوم ينفعـك الآن ؟ ان مظهرك يدل على أن بك حمى •••

ألقى فاسيا على أركادى نظرة متجهمـة ، بل وحانقـة ، ولم يقـل شيئا •

ـ عليك بشىء من الراحة يا فاسيا ! •• فيم هذا العناد ؟

ظهر على فاسيا فجأة أنه غيَّر رأيه • فقال :

ـ ما رأيك فى تناول قليل من الشاى ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأسترد قواى • لا أريد أن أنام • لن أنام • سأظل أكتب طول الوقت • ولكننى أتمنى لو أتنفس قليلا بشرب قدح من الشاى ، فلعـل هذا أن يبدد ما أنا فيه من حالة عصبية •

ـ طيب يا صاحبى •• فكرة عظيمة •• ذلك بعينه ما كنت أريد أن أقترحه عليك ! يدهشنى أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى •• ولكن مافرا لن تنهض بحال من الأحوال • يستحيل ايقاظها فى مثل هذه الساعة !

ـ نعم ، صحيح ••

ـ لا ضير •• سأضع السماور بنفسى ! ما أنا بالغر على كل حال •

بهذا هتف أركادى ايفانوفتش ناهضا عن سريره بوثبة • وأسرع

الى المطبخ يتحرك حول السماور • واستمر فاسيا يكتب أثناء ذلك• وهرع أركادى ايفانوفتش يرتدى ثيابه ويركض الى الخباز حتى يستطيع فاسيا أن يقتات لليل • فما انقضى ربع ساعة الا كان السماور على المائدة يتصاعد منه البخار • صب الصديقان الشاى • ولكنهما لم يتوصلا الى الانخراط فى حديث • كان فاسيا يبدو ذاهلا • وفجأة قال كمن ثاب الى نفسه :

ـ نعم •• يجب أن أذهب غدا لتقديم تمنياتى بمناسبة عيـــد رأس السنة •

ـ ما أنت فى حاجة الى ذلك •

ـ بل لا بد من ذلك يا صاحبى •

ـ ولكننى سأوقّع عنك لدى الجميـع ! لا تهتم ! غـدا ستعمل • لو كنت فى محلك لعملت اليوم حتى الساعة الخامسة ، ثم نمت • والا فما عسى تكون حالتك غدا • وسوف أوقظك فى الساعة الثامنة •

قال فاسيا وقد اقتنع نصف اقتناع :

ـ ولكن هل يليق أن توقّع عنى ؟

ـ لمَ لا ؟ الناس جميعا يفعلون ذلك •

ـ مع ذلك أخشى أن •••

ـ ولكن ماذا تخشى ؟

ـ لا أعارض فى أن توقع عنى لدى غيره ••• أما لديه هو ، لدى جوليان ماستاكوفتش •• فذلك •• لاحظ انه المحسن الىّ يا أركاشا •• فماذا يكون وضعى لو لاحظ أن التوقيع ليس توقيعى ؟

ـ لو لاحظ •• انك لغريب الأطوار حقا يا فاسيوك ! كيف يستطيع أن يلاحظ ذلك ؟ أنت تعلم أننى أقدر أن أوقع اسـمك بتقليد خطـك

تقليدا تاما • سوف أرسم توقيعك نفسه ، توقيعك نفسه تماما ، أحلف لك • لن يلاحظ أحد شيئا ، أنا أضمن لك هذا •

أفرغ فاسيا قدحه بسرعة دون أن يجيب ، ثم هز رأسه علامة الشك والريب •

ـ فاسيا ! المهم هو أن تنجح فى انجاز العمل ! ولكن ما بك يا فاسيا ؟ هل تعلم أنك تخيفنى ؟ لن أرقد فى فراشى يا فاسيا ! لن أستطيع أن أنام • أرنى كم صفحة بقى عليك أن تنسخ •

ألقى فاسيا على أركادى نظرة انقبض لها صدره انقباضا شديدا ، حتى لم يستطع أن يحرك لسانه • وقال أخيرا :

ـ ولكن ماذا بك يا فاسيا ؟ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟

ـ أعتقد يا أركادى أننى سأذهب أهنىء جوليان ماستاكوفتش رغم كل شىء •

قال أركادى وهو يرمق صاحبه بنظرة تدل على القلق :

ـ لك ما تشاء •• افعل ما دمت تحرص على ذلك • ولكن اسمع يا فاسيا : عجل كتابتك قليلاً • يمينا لست أسدى اليك نصيحة سيئة • ألم يقل جوليان ماستاكوفتش مرارا ان ما يحبه فى خطك أكثر من أى شىء آخر هو أنه خط مقروء ؟ انه ليس مثل سكوروبليخين الذى يتطلب خطا مقروءا وجميلا فى آن واحد ! ••• لا لشىء الا ليخطف الورقة كيفما اتفق ، ثم يحملها الى أولاده من أجل أن يتمرنوا على حسن الخط باعادة نسخها •• كأن هذا الأحمق لا يستطيع أن يشترى لهم دفاتر تمرين على حسن الخط •• ولا كذلك جوليان ماستاكوفتش ، فانه لا يطلب الا شيئا واحدا هو أن يكون الخط مقروءا ، مقروءا ! ••• فلماذا تصدع

رأسك اذن ، وترهق نفسك من أمرها عسرا ؟ حقا يا فاسيا .. لا أعرف ماذا أقول .. بل اننى لأخشى أن ... فاسيا .. ان حزنك يهدنى هدا رهيبا !

قال فاسيا :

ـ الأمر بسيط .. الأمر بسيط .

ثم خارت قواه ، فتهالك على كرسيه .

هبَّ أركادى يتحرك حوله :

ـ هل تريد ماء ؟ فاسيا ! فاسيا !

قال فاسيا ، وهو يشد على يده :

ـ دعنى يا أركادى .. ليس بى شىء . كل ما هنالك أننى حزين قليلا يا أركادى .. وأنا نفسى لا أعرف لحزنى هذا سببا . دعنا نتحدث فى أمر آخر .. لا تذكّرنى ..

ـ هدىء نفسك يا فاسيا ، ناشدتك الله .. هدىء نفسك ! لسوف تنجز عملك ، أحلف لك . وهبك لم تنجزه ، فأين الكارثة فى هذا ؟ أفى الأمر جريمة ؟

ـ أركادى !

نطق فاسيا بذلك ، ونظر الى صديقه نظرة فيها من التعبير ما جعل أركادى يرتعش ، لأنه لم ير صديقه فى يوم من الأيام نهبا لقلق يبلغ هذا المبلغ من الشدة .

وتابع فاسيا يقول :

ـ أركادى .. لو كنت وحيدا ، كما كنت كذلك فى الماضى ...

لا .. ليس هذا ما أردت أن أقوله .. انني أشعر دائما بالحاجة الى أن أفضى اليك بما يعتلج فى نفسى ، وأن أبوح لك بكل شىء ، كما يبوح صديق لصديقه..ولكن فيم اقلاقك وازعاجك ؟ بعض الناس ، يا أركادى، قد وهب لهم فى هذه الحياة شىء كثير ، بينما لم يوهب لغيرهم ، مثلى أنا ، الا أن يقوموا بمهمة هينة الشأن . قل لى : ما عساك تفعل لو كان عليك أن تبرهن على امتنانك ، على شكرك ، ثم رأيت نفسك عاجزا عن ذلك ؟

ـ لا أفهمك يا فاسيا !

تابع فاسيا يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ـ لم أكن فى يوم من الأيام عاقا ينكر الجميل ، ولكننى عاجز عن التعبير عن كل ما أشعر به ... ذلك يا أركادى .. أمر يشعرنى بأننى عاق فى الواقع ، وهذا بعينه هو ما يقتلنى قتلا .

ـ ما هذا الكلام يا فاسيا ؟ أأنت تظن حقا أن كل امتنانك يجب أن يكون بتقديم منسوختك فى المهلة المحددة ؟ هلا راقبت نفسك يا فاسيا ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ أبهذا يعبِّر المرء عن شكره ؟

صمت فاسيا فجأة محملقا فى أركادى ، كأن هذه الحجة التى لم يكن يتوقعها قد بددت شكوكه . حتى لقد ابتسم ، ولكن وجهه لم يلبث أن استرد تعبيره عن التفكير .

رأى أركادى فى هذه الابتسامة دليلا على أن جميع المخاوف قد زالت ، ورأى فى الهم الذى أعقب الابتسامة دليلا على أن صاحبه قد اتخذ قرارا جديدا ، فابتهج لذلك ابتهاجا عظيما .

قال فاسيا :

ـ طيب يا أركاشا ؟ اذا اتفق ان استيقظت ، فألق نظرة على . لسوف

يكون الأمر كارثة اذا نمت • والآن سأكب على العمل • أركاشا !

ـ ماذا ؟

ـ لا ••• لا شيء •• وانما أردت ••

استقر فاسيا على كرسيه صامتا ، ورقد أركادى على فراشه ، ولم ينطق هـذا ولا ذاك بكلمة عن جمـاعة كولومنا ، ولعلهما كانا يشـعران كلاهما بأنهما آثمان لأنهما « بذّرا » فى غير أوان التبذير • نام أركادى بعد قليل ، وهو ما يزال قلقا على فاسيا • وما كان أشـد دهشته حين لم يستيقظ الا بعيد الساعة السـابعة • كان فاسيا نائما على كرسيه ، ممسكا ريشته بيده • انه أصـفر الوجه متعب • وكانت الشمعة قـد ذابت الى النهاية • وفى المطبخ كانت مافرا تتحرك حول السماور •

صاح أركادى مروعا :

ـ فاسيا ، فاسيا ، فى أية ساعة نمت ؟

فتح فاسيا عينيه ، ونهض عن كرسيه بوثبة ، قائلا :

ـ اذن لقد نمت مع ذلك •

وأسرع الى أوراقه ، ولكن كل شيء كان على خير حال ، فلا بقع حبر ، ولا بقع دهن من الشمعة •

قال فاسيا :

ـ أظن أننى نمت فى نحو الساعة السادسة • ما كان أشد البرد فى الليل ! سنشرب الشاى ، ثم استأنف العمل •

ـ هل ارتحت قليلا ؟

ـ نعم ، أشعر الآن بتحسن •

ـ عاما سعيدا يا عزيزى فاسيا •

ـ صباح الخير يا صاحبى •• عاما سعيدا لك أيضا •

وتعانق الصديقان • كانت ذقن فاسيا ترتجف ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه • وأركادى لا يقول شيئا • انه يشعر بمرارة شديدة • تناول الصديقان الشاى على عجل •

ـ أركادى ! قررت أن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش بنفسى •

ـ ولكنه لن يعلم بذلك •

ـ ضميرى يدفعنى الى ذلك يا صاحبى •

ـ أنت تسهر فى سبيله ، وترهق نفسك من أجله ••• أما أنا يا صاحبى ، فسأذهب لحظة الى هناك •••

ـ الى أين ؟

ـ الى أسرة أرتميف ، أقدم لهم تمنياتى وتمنياتك •

هتف فاسيا يقول :

ـ ما أحسنها فكرة يا صديقى العزيز • سأبقى أنا فى البيت ، وتذهب أنت اليهم ••• فكرة رائعة •• لا عن اهمال منى لهم طبعا ، بل لأننى أعمل • انتظر ، سأحمّلك اليهم رسالة قصيرة •

ـ على مهلك يا عزيزى ! سأغسل وجهى أولا وأحلق ذقنى وأنظف ردائى • هل رأيت يا صاحبى فاسيا ؟ لسوف نكون مبتهجين سعيدين مع ذلك ! قبلنى يا صاحبى !

ـ ليت هذا يكون صحيحا يا صديقى !

وهنا دوى صوت على فسحة السلم أمام الباب :

ـ هل هنا يسكن السيد الموظف شومكوف ؟

أجابت مافرا ، وهى تدع المزائر أن تدخل :

ـ نعم هنا ياسيدى •

صاح فاسيا وهو يهرع نحو حجرة المدخل :

ـ ماذا هناك ؟ من ؟

ـ يومك سعيد يا فاسيلى بتروفتش • يشرفنى أن أتمنى لك عاما طيبا سعيدا •

كذلك قال صبى لطيف أسمر، فى نحو العاشرة من عمره ، مضفور الشعر • وأضاف الصبى يقول :

ـ أختى تبعث اليك بتحياتها ، وكذلك ماما • وقد كلفتنى أختى بأن أقبلك •

أنهض فاسيا الرسول الصغير فى الهواء ، وطبع قبلة طـــويلة حارة على شفتيه اللتين تشبهان كثيرا شفتى ليزانكا • ثم قال لصاحبه أركادى وهو يمد اليه بتيا :

ـ قبّله يا أركادى •

فانتقل الصبى ، دون أن يلامس الأرض ، الى الذراعين القـــويتين الحانيتين ، ذراعى أركادى ايفانوفتش •

ـ هل لك بقليل من الشاى يا حبيبى ؟

ـ شكرا كثيرا• لقد أفطرنا• استيقظنا فى ساعة مبكرة هذا الصباح• ماما وأختى ذهبتا الى الكنيسة • أختى غسلتنى وألبستنى ومشطتنى خلال

ساعتين • وخاطت ما تفتق أمس من سروالى فى الشـارع حين لعبت مع ساكشا بالثلج نتراشق كراته •••

ـ هكذا ؟

ـ نعم ، ألبستنى وجملتنى لأجىء اليك • ثم قبلتنى مائة مرة وقالت لى : « اذهب الى فاسيا ، وهنئه بعيد رأس السنة ، واسأله هل هو راض سعيد ، وهل نام نوما هادئا مريحا •• » ، وطلبت منى أن أسألك أيضـا هل أنجزت العمل الذى •• ولكنى سجلت ما طلبته منى على ورقة صغيرة (هكذا قطع الفتى كلامه ثم أخرج من جيبه ورقة وقرأ : ••• العمـل الذى كان يشغل بالك • » •

ـ نعم •• نعم ، سينجز •• سينجز حتما ! لا تنس أن تقول لهـا اننى سأنجزه قطعا ، بشرفى !

ـ نعم •• ها •• كدت أنسى •• حملتنى أختى اليك رسالة قصيرة وهدية •• كدت أنسى أن أعطيكهما !

ـ أين هما يا حبيبى ؟ أين هما ؟ شكرا •• اسمع يا أركاشا ماذا تقول لى ليزانكا الغـالية ••• أنت تعـلم اننى رأيت هنـاك أمس محفظة ستهدى الى • ان المحفظة لما يكمل شغلها بعد • لذلك تقـول ليزانكا : « أبعث اليك بخصلة من شعرى • أما الهدية الأخرى فسوف تستلمها بعد مدة قصيرة • » • أرأيت يا صاحبى ؟

قال فاسيا ذلك وقد جُن فرحا ، وهو يُرى صديقه خصلة شـعر أسود رائع • قبَّل فاسيا خصلة الشعر ، ثم أودعها جيبه قرب القلب •

قال أركادى بلهجة حازمة :

ـ سوف أوصى لك بنيشان لهذه الخصلة .

قال الصبى :

ـ وسنأكل شواء ومخا فى الغد . وقد أرادت أمى أن تصنع شيئا من البسكويت ... ولكنها لم تجد دقيقا (كذلك استرسل الصبى فى كلامه بعد أن تردد قليلا وهو لا يعرف كيف يكمل ثرثرته) .

صارح أركادى ايفانوفتش :

ـ ما ألطف هذا الصبى . أنت يا فاسيا أسعد أهل الأرض طرا ، ما فى ذلك ريب !

شرب الزائر الصغير نصيبه من الشاى ، وأخذ من فاسيا رسالة الى أخته ، وقبّل ألف مرة ، ثم انصرف خفيف الخطى مشرق المزاج كما جاء .

قال أركادى فرحا :

ـ هل رأيت يا صاحبى ؟ ان الأمور جميعها تجرى على ما نحب . فلا تحزن وخاصة لا تدع لخور العزيمة أن يتسرب اليك ! الى الأمام ! أنجز عملك يا فاسيا ! سأعود فى الساعة الثانية . أذهب اليهم أولا ، ثم أذهب الى جوليان ماستاكوفتش .

ـ الى اللقاء يا صديقى الى اللقاء ! آه ... ليتنى فقط .. طيب .. اذهب .. أما أنا فقد قررت : لن أذهب الى جوليان ماستاكوفتش .

ـ الى اللقاء .

ـ انتظر يا صاحبى .. قل لهم.. الخلاصة .. قل لهم ما تستحسن أن تقوله .. وقبّلها .. وستحكى لى كل شىء بعد ذلك يا صاحبى ، ستصف لك كيف جرت الأمور ...

ـ طبعا . ثم انني أعرف الان ماذا أصابك أمس : ان السعادة هي التي شوشتك ذلك التشويش كله .. منذ أمس حالتك غير طبيعية ... انك لما تتخلص من مشاعر الأمس . أما الآن فقد انتهى كل شيء . عد الى هدوئك يا فاسيا .. الى اللقاء .. الى اللقاء ! ..

افترق الصديقان أخيرا . ظل أركادى ايفانوفتش ذاهلا طوال الصباح . كان لا يفكر الا فى فاسيا . انه يعرف طبيعته الضعيفة السريعة الى الهيجان .

قال أركادى لنفسه : « نعم لقد أقلقت هذه السعادة نفسه اقلاقا كاملا ذلك واقع لا شك فيه . وما أشد ما أحزننى أيضا . ان الانسان قادر على أن يجعل من أيسر الأمور مأساة ضخمة ! ما هذه الحمى التى انتابته ؟ لا .. لا .. يجب انقاذه .. يجب انقاذه حتما » . كذلك كان يردد أركادى دون أن يلاحظ أن هموما منزلية صغيرة يسيرة قد تضخمت فى قرارة نفسه هو حتى صارت فى نظره أشبه بكارثة !

لم يدخل أركادى حجرة حاجب جوليان ماستاكوفتش الا فى الساعة الحادية عشرة ، ليضيف اسمه المتواضع الى العمود الضخم الذى تؤلفه أسماء شخصيات مرموقة تغطى ورقة بكاملها مبقعة بالحبر . فما كان أشد دهشته حين رأى فوق توقيعه توقيع فاسيا شومكوف بخط يده ! شعر أركادى باضطراب شديد . « ماذا يحدث فى رأسه ؟ » كذلك تساءل وهو يزداد احمرارا من فرط القلق . اختفت آماله المشرقة . أدرك أن هناك نازلة تهم أن تقع . ولكن أين عساها تقع وكيف ؟

ووصل الى كولومنا متجهم النفس . كان يبدو فى أول الأمر خائفاً على فاسيا حقا . أسرع يعود الى البيت راكضا . ولكن ها هو ذا ، على جليد نهر نيفا ، يصطدم بشكوموف ، أنفا بأنف . كان هذا يركض هو أيضا .

صاح أركادى يسأله :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

وقف فاسيا وقفة من قبض عليه متلبسا بالجرم ، وقال :

ـ خ .. خرجت أقوم بجولة قصيرة .

ـ لم تستطع أن تستقر فى مكانك ، هه ؟ أنت ذاهب الى كولومنا أليس كذلك ؟ يا فاسيا .. يا فاسيا ! ثم لماذا ذهبت الى جوليان ماستاكوفتش ؟

لم يجب فاسيا بشىء . وفجأة حرك يده باشارة يأس وقال :

ـ أركادى .. لا أعرف ماذا يحدث فى نفسى .. انتى ..

ـ هيا هيا ، يا فاسيا .. أنا أعرف ، أنا أعرف ماذا . هدىء نفسك. أنت مهتاج مضطرب منذ أمس . وكيف يمكن أن يكون المرء غير ذلك لو كان فى مكانك ؟ ولكنهم جميعا يحبونك ، وهم جميعا يدارونك ، وستنجز عملك حتما ، ستنجزه ، أحلف لك . ان فى ذهنك وساوس غريبة ، ومخاوف غامضة .. هل أدرى ؟

ـ لا .. لا شىء ..

ـ هل تتذكر يا فاسيا ؟ لقد مررت بحالة نفسية كهذه حين حصلت على تعيينك . فقد جننت يومئذ فرحا ، فأخذت تجوّد خطك أكثر مما اعتدت أن تجوده ، فاذا أنت خلال ثمانية أيام لا تزيد على أن تفسد عملك ! والآن يحدث لك هذا الشىء نفسه !

ـ نعم نعم يا أركادى ، ولكن الامر الآن مختلف !

ـ كيف .. مختلف ؟

ـ لا .. لا .. لا قيمة لهذا .. لنعد الآن الى المنزل !

ـ ألا تريد أن تذهب اليهم ؟

ـ لا ياصاحبى .. هل أستطيع أن أدخل عليهم بهذه السحنة ؟ لقد غيرت رأيى .. اذا لم أستطع أن أبقى فى البيت ، فلأنك لم تكن معى ، أما وقد عدت ، فسأستأنف الكتابة ! هيا بنا !

سارا بعض الوقت صامتين . وكان فاسيا مسرع الخطو .

قال أركادى ايفانوفتش :

ـ ألا تريد أن تسألنى عن أخبارهم ؟

ـ ها .. نعم .. كيف كان الحال ؟

ـ فاسيا .. انك تخيفنى !

ـ لا .. لا .. لا شىء .. احك لى كل شىء ، هل تريد ؟

قال فاسيا ذلك بصوت ضارع ، كمن يريد أن يتحاشى الشروح المملة المضجرة .

تنهد أركادى ايفانوفتش . واضح أنه أصبح ، وهو يتأمل فاسيا ، لا يدرى ماذا يعمل ولا كيف يتجه .

روى أركادى لصديقه تفاصيل زيارته ، فبدا على فاسيا أنه يفيق من ذهوله ، حتى لقد أصبح كثير الكلام . وتناول الصديقان غداءهما . وكانت الأم العجوز قد حشت جيوب أركادى ايفانوفتش بالبسكويت ، فلما أخذ الصديقان يقضمانها انتعشت روحاهما وعاد اليهما مرحهما . وبعد الغداء ، وعد فاسيا بأن ينام قليلا حتى يستطيع السهر طول الليل . وها هو ذا يستلقى على فراشه فعلا . وكان أحد الناس الذين لا يمكن أن ترفض دعوتهم قد دعا أركادى ايفانوفتش فى الصباح أن يجىء لشرب الشاى عنده . فافترق الصديقان . وقرر أركادى أن يعود الى البيت

باقصى سرعة ، فى الساعة الثامنة اذا أمكن ذلك • بدت له الساعات الثلاث التى غاب أثناءها عن البيت كأنها ثلاث سنين ؛ واستطاع أن يتحرر أخيرا فهرول يعود الى المنزل • فلما دخل الغرفة لاحظ أنه ليس فيها نور • ثم لم يجد فاسيا • فلما سأل مافرا قالت انه ظل يكتب طول الوقت ، وانه لم يرقد فى فراشه ، وانه أخذ بعد ذلك يسير فى الغرفة طولا وعرضا ، ثم فى نحو الساعة الواحدة ، أسرع يخرج قائلا انه عائد بعد نصف ساعة • وختمت مافرا حكايتها بقولها : « وقد طلب منى أن أقول لك ، متى رجعت ، انه خرج يتنزه قليلا ، وقد كرر هذا الطلب ثلاث مرات أو أربعا •

قال أركادى لنفسه وهو يهز رأسه : « انه عند أسرة أرتميف » •

وبعد دقيقة نهض عن كرسيه بوثبة • لقد لمع فى قلبه أمل • قال لنفسه : « أغلب الظن أنه أنجز الكتابة ، فلما لم يستطع بعد ذلك أن يبقى فى البيت ، هرع الى هناك •• ولكن لا •• لو صح ذلك لانتظرنى ••• سوف ألقى نظرة على عمله • »

أشعل شمعة وأسرع الى مكتب فاسيا • لقد تقدم فاسيا فى عمله ؛ ويبدو أنه يوشك أن ينهيه • وفيما كان أركادى ايفانوفتش يريد أن يستمر فى تحرياته ، اذا بفاسيا يدخل فجأة ••

صاح مذعورا :

ـ أأنت هنا ؟

صمت أركادى ايفانوفتش • لقد خاف أن يلقى أسئلة على فاسيا • وأخذ فاسيا ، هو أيضا ، يقلب أوراقه خافضا بصره • والتقت نظرات الشابين أخيرا • فكان فى نظرات فاسيا من التعبير عن الفاجعة والضراعة ما جعل أركادى يرتعش • لقد فاض قلبه شفقة ورحمة •

صاح وهو يسرع الى صديقه ويضمه بين ذراعيه :

ـ فاسيا، عزيزى ، ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟ صارحنى.. أصبحت لا أفهمك ، لا أفهم ما أنت فيه من حزن ! ماذا بك يا عزيزى ؟ ماعذابك؟ قل لى كل شىء ، لا تخف عنى شيئا . لا يعقل أن يكون هذا الأمر وحده هو الذى ...

شد فاسيا جسمه الى صاحبه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . كان حلقه يختنق، وكانت أنفاسه محبوسة .

ـ مابك يا فاسيا ؟ هلا انتهيت ؟ أى شقاء حل بك ؟ اننى لا أفهم يا فاسيا ! قل لى : ما الذى يقلقك هذا الاقلاق كله ؟ أنت تعلم أننى فى سبيلك ، أستطيع أن ... آه يا رب يا رب ! (كذلك أخذ يردد أركادى وهو يمشى فى الغرفة طولا وعرضا ، يمسك تارة بشىء ، ويمسك تارة بشىء آخر ، كأنه يبحث لفاسيا من دواء مباشر) . سأذهب غدا بنفسى الى آخر ، كأنه يبحث لفاسيا عن دواء سريع) . سأذهب غدا بنفسى الى جوليان ماستاكوفتش ، فأتوسل اليه أن يمهلك يوما آخر . سأشرح له كل شىء ، كل شىء ، اذا كان هذا هو ما يقلقك الى هذا الحد حقا ...

صاح فاسيا وقد اصفر وجهه ، وترنح حتى ليكاد لا يستطيع الثبات على قدميه :

ـ اياك !

ـ فاسيا ! فاسيا !

ثاب الفتى الى رشده . كانت شفتاه تختلجان . أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل ، بل اكتفى بأن شد على يد أركادى بحركة عصبية متشنجة . كانت يده باردة . وكان أركادى واقفا أمامه وقد استبد به هم رهيب . ومرة أخرى نظر اليه فاسيا متفرسا .

ـ فاسيا .. ما بك يا عـزيزى المسكين فاســيا ؟ انك تمزق قلبى يا عزيزى ، يا صديقى البائس ..

تمتم فاسيا يقول :

ـ لقد خدعتك يا أركادى .. لقد خدعتك ! اغفر لى ، سامحنى.. لقد كذبت عليك ...

كذلك قال أركادى مذعورا مروعا .

ـ أنظر !

قال فاسيا ذلك ، وأخـرج من الدرج ستة دفاتر ضـخمة ، شبيهة بالدفتر الذى كان ينسخه ، ثم رماها واحدا واحدا على المائدة ، وقد بدا على وجهه يأس شديد .

ـ ما هذا ؟

ـ هذا هو العمل الذى يجب أن أفرغ منه بعد غد . وأنا لم أنجز حتى الآن ربعه . لا تسألنى كيف حدث هذا (كذلك تابع فاسيا كلامه يشرح من تلقاء نفسه الموضـوع الذى يقلقه) . أركادى ، صـديقى ! لا أدرى ما الذى أخذنى عن نفسى .. لكأننى أخرج الآن من حلم . لقد ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة . كنت أذهب كل يوم ... اليها .. كان قلبى يتمزق ... كنت أعانى عذابا شديدا .. من عدم الثقة ... ولم أستطع أثناء ذلك أن أكتب شيئا .. حتى لقد كانت الكتابة لا تخطر لى على بال. ولم أستيقظ الا الآن ، أى حين جاءتنى السعادة .

قال أركادى ايفانوفتش بلهجة حازمة :

ـ فاسيا .. سوف أنقذك . فهمت الآن كل شيء . الأمر خطير . سوف أنقذك . اصغ الى : سوف أذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا ؛ لن أتأخر عن الغد . بل اصغ الى . سوف أحكى له كل شيء . اسمح لى أن أفعل ذلك .. سوف أشرح له كل شيء ، مسترسلا حتى النهاية . سوف أقول له كيف أنك تقتل نفسك .

قال فاسيا وقد جمده الرعب :

ـ هل تعلم أنك تقتلنى منذ الآن ؟

اصفر وجه أركادى ايفانوفتش ، ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه ، فانفجر يضحك قائلا :

ـ حقا ؟ هيا هيا يا فاسيا .. ألا تستحى ؟ اسمع : أنا أرى أننى أضايقك . وأنا أفهمك . أنا أعرف ما يجرى فى نفسك . لقد انقضى على سكنانا معا خمس سنوات . أنت انسان طيب القلب ، مرهف الشعور، ولكنك ضعيف جدا ، ضعيف ضعفا يدعو الى اليأس . ليزافيتا ميخائيلوفنا لاحظت هى نفسها ذلك . وأنت فوق هذا انسان حالم ... وليس فى ذلك خير أيضا . فاذا واصلت سيرك على هذا النحو كنت تتعرض للجنون يا صاحبى . اسمع . أنا أعرف ماذا تريد . أنت تتمنى مثلا أن يطير صواب جوليان ماستاكوفتش فرحا ، بل وأن يقيم حفلة راقصة ، احتفالا بزواجك . انتظر قليلا . هأنت ذا تصعر وجهك اذ ساءك أن آتى على ذكر جوليان ماستاكوفتش ! طيب ... دعنا منه . لاحظ مع ذلك أننى أحترمه كما تحترمه ! ولكنك لن تستطيع أن تبرهن لى على نقيض ما أقول ، ولن تستطيع أن تمنعنى من الاعتقاد بأنك ترى أنه ما ينبغى أن يكون على وجه الأرض أشقياء ما دمت تتزوج أنت ... صادق على ما أقول يا صاحبى .. انك تود أن أصبح ، أنا خير صديق لك ، رأسماليا على حين

فجأة ، أن أملك ألف روبل ؟ تتمنى أن يتصافح جميع الناس الذين يكره بعضهم بعضاً فى هذه الحياة الدنيا ، فاذا هم يتعانقون فى وسط الشارع ، ثم اذا هم يجيئون يزورونك هنا .. يا عزيزى ، يا صديقى الطيب ، لست أسخر منك .. أبدا .. ولكن الأمر كذلك . انك تعرض علىّ نظريات من هذا القبيل منذ زمن طويل ، على تنوع فى صور هذه النظريات ! ... فلأنك سعيد ، تريد أن يصير جميع الناس سعداء بين عشية وضحاها . يؤلمك أن تكون وحدك سعيدا . لذلك تبذل جهدا كبيرا من أجل أن تكون جديرا بهذه السعادة . لا شك أنك مستعد للقيام بعمل بطولة ، لا لشىء الا لترضى ضميرك !.. طيب.. أنا أفهم أن تكون مستعدا لتعذيب نفسك تعذيبا روحيا كبيرا ، معاقبة لنفسك على أنها خارت حيث كان ينبغى أن تنشط .. أو حيث كان ينبغى أن « تعترف بالجميل » على حد تعبيرك ! فحين تتصور أن جوليان ماستاكوفتش سيصعر وجهه اذ يدرك أن الآمال التى عقدها عليك لم تكن فى محلها تنهار قواك وتقلق قلقا رهيبا . انك تتألم حين تتصور أنك ستسمع لوما من فم الانسان الذى تعده محسنا اليك وأنك ستسمع هذا اللوم فى لحظة يكون فيها قلبك طافحا فرحا وسعادة ، وفى لحظة تكون فيها أنت لا تدرى لمن تظهر شكرك وتعبر عن امتنانك . ألست على حق ! أليس الأمر كذلك ؟

أخذ صوت أركادى ايفانوفتش يرتجف، فتوقف عن الكلام وتنفس تنفسا قويا .

وكان فاسيا ينظر الى صديقه فى رقة وحنان . وارتسمت على شفتيه ابتسامة .

كأن طيفا من أمل قد مر بوجهه . فتشجع أركادى لهذه النتيجة ، فاستأنف كلامه يقول :

ـ اسمع يا فاسيا • ما ينبغى لجوليان ماستاكوفتش أن يمنع عنك الآن ما كان يحمله لك من عطف • أليس كذلك يا صديقى ؟ أليست هذه هى المسألة ؟ فاذا كانت هذه هى المسألة ، فسأضحى أنا بنفسى (قال ذلك وهو يهب واقفا) •• سأذهب الى جوليان ماستاكوفتش غدا •• ولكن لا تعارضنى ! ذلك أنك يافاسيا تضخم خطأك فتجعله جريمة ! مع أن جوليان ما ستاكوفتش انسان كبير النفس رحيم القلب • ثم انه ليس مثلك أبدا • سوف يصغى الى كلامنا يا عزيزى فاسيا ، فينقذنا من المأزق •• هل هدأت الآن ؟

شد فاسيا على يد أركادى والدموع فى عينيه • ثم قال :

ـ طيب يا أركادى ، دعنا من الحديث فى هذا الموضوع الآن ! لقد حُلت المشكلة •• لم أنجز العمل •• طيب •• لم أنجزه •• تأخرت .. هـذا كل شىء . لا داعى الى أن تزعج نفسك . سأذهب اليه بنفسى ، فأشرح له الأمر •• لقد هدأت نفسى الآن ، واطمأن بالى اطمئنانا كاملا • ولكن لا تذهب اليه •• أطعنى ••

هتف أركادى يقول فرحا :

ـ فاسيا ، عزيزى • أنا لم أقل ما قلته الا استنادا الى كلامك نفسه• يسعدنى أنك هدأت بالا وطبت نفسا • تذكر مع ذلك أننى الى جانبك دائما ، مهما يحدث • ان فكرة تحدثى الى جوليان ماستاكوفتش تخيفك •• طيب •• لن أكلمه أنا ، بل تكلمه أنت ذاكرا له كل شىء • تذهب اليه غدا •• أو تبقى أنت فى البيت لتكتب ، وأمضى أنا أستطلع الخبر اليقين فى المكتب : هل الأمر مستعجل حقا أو لا ؟ هل يجب تسليم العمل فى تاريخ محدد قطعا ؟ وما هى النتائج التى تترتب على تأخر قد يحدث ؟ ثم أعود اليك بأقصى سرعة ممكنة أحمل اليك الخبر اليقين • هل رأيت

الآن أن هناك أملا ؟ قد لا يكون الأمر مستعجلا. ان فى وسعنا أن نتخلص من المأزق عندئذ فى يسر . وقد لا يطلب اليك جوليان ماستاكوفتش تسليم العمل فى اليوم المحدد له ؛ ان كل شىء يكون عندئذ قد أنقذ .

هز فاسيا رأسه علامة الشك والريب ، ولكنه ظل يلقى على صديقه نظرة شكر واعتراف بالجميل .

قال لاهثا :

ـ دعنا من هذا الموضوع الآن ! انني ضعيف جدا ، متعب جدا ، فلا أحب أن أفكر فى هذا الموضوع قط . هلا تكلمنا فى شىء آخر ؟ ثم انني أوثر أن لا أعمل الآن .. لن أنسخ الا صفحة أو صفحتين ، أى الى أن أبلغ فاصلا ما .. اسمع يا فاسيا : انني أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال : كيف استطعت أن تعرفنى هذه المعرفة الصحيحة الصادقة ؟

وتساقطت دموع فاسيا على يدى أركادى .

قال أركادى :

ـ لو عرفت يا فاسيا مدى حبى لك وتعلقى بك لما ألقيت علىّ سؤالا كهذا السؤال .

ـ نعم يا أركادى أنا لا أعرف ذلك ، لأننى .. لأننى أجهل لماذا تحبنى هذا الحب كله . هل تعلم يا أركادى أن ما تحمله لى من حب قد عذبنى كثيرا ؟ هل تعلم أننى فى كثير من الأحيان ، ولا سيما فى المساء ، حين أفكر فيك (وأنا أفكر فيك دائما لحظة أستلقى على فراشى لأنام) ، أهمُّ أن أبكى وأشعر بارتجاف فى قلبى لأننى .. لأننى .. لأنك تحبنى هذا الحب كله ، ثم أنا عاجز عن أن أفتح قلبى وأن أبرهن لك على امتنانى .

ـ هل رأيت يا فاسيا ماذا أنت ؟ هدىء نفسك اذن هأنت ذا تضطرب اضطرابا شديدا من جديد ! (لاحظ أركادى ذلك وهو يرتجف لذكرى المشهد الذى جرى الليلة البارحة فى الشارع) .

ـ دعك من هذا الكلام يا صاحبى ! تريد منى أن أهدأ وانا لم اكن فى يوم من أيام حياتى أهدأ منى الان ولا أسعد ! لشد ما تمنيت أن احكى لك كل شىء ، ولكننى أخاف دائما أن أسبب لك ألما . فانت تقلق على ، فتصيح وتخيفنى .. أنظر .. حتى فى هذه اللحظة ارتجف .. لا أدرى لماذا ؟ اليك ما أحب أن أقوله لك : يخيل الى أننى كنت فى الماضى أجهل نفسى .. أما الآخرون فانني لم أعرفهم ولم أفهمهم الا منذ أمس . كنت حتى هـذا اليوم لا أفهم .. ولا أقدّر .. كان قلبى جافا يابسـا . اليك كيف حدث ذلك : أنا لم أستطع أن أحسن الى أحد فى يوم من الأيام ، لأننى كنت عاجزا عن أن أحسن الى أحد .. فحتى مظهرى ليس فيـه ما يبهج النظر .. ومع ذلك كان جميع الناس يحملون لى عاطفة طيبة ! وأنت أولهم .. طبعا .. أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أفعل شيئا غـير

دى :

ـ ـ ـذا يا فاسيا ؟ فاسيا ... ماهذا ؟

فقاطعه فاسيا بقوله ، وهو لا يكاد يستطيع أن يلفظ كلماته من كثرة الدموع التى تخنق صوته :

ـ ماذا ؟ لا شىء .. أمس ، كلمتـك عن جوليـان ماستاكوفتش . أنت تعلم أنه قاس بل انه قاتم النفس ، وأنه قرعنى عدة مرات . ولكن ها هو ذا يخطر بباله أمس أن يمازحنى ، وأن يكون لطيفا معى ، وأن يظهـر طيبـة قلبه ، تلك الطيبـة التى يخفيهـا اخفـاء عاقلا حكيما عن الآخرين .

ـ طيب يا فاسيا ! .. ان دل هذا على شيء ، فانمـا يدل على أنك جدير بسعادتك .

ـ آه يا أركاشا ! لشد ما أتمنى لو أستطيع انجاز هذا العمل ! .. لا .. لا .. ان سعادتي ستتحطم .. أنا أوجس ذلك ! .. ولكن لابسبب هذا (كذلك قاطع نفسه اذ لاحظ أن أركادى يختلس النظر الى كـومة الدفاتر المتكدسة على المائدة قناطير) .. لا بسبب هذا .. هذا لا شيء .. ما هذا الا ورق .. ترهات .. هذه المسألة قد حُلَّت .. أركاشا ، لقد ذهبت اليها اليوم .. لكنني لم أدخـل . كان قلبي مثقـلا ، يفيض حزنا ومرارة ! لبثت واقفا أمام الباب بعض الوقت . كانت تعزف على البيانو ، فأنصت .. أرأيت يا أركادى ؟ لم أجرؤ أن أدخل .

هكذا أنهى فاسيا كلامه بصوت خافت .

ـ ما بك يا فاسيا ؟ انك تنظر الىَّ نظرة غريبة .

ـ لا شيء .. لا شيء .. أشـعر بأنني مريض قليـلا .. سـاقاى تصطكان .. ذلك لأنني سهرت طول الليل . نعم ، وان شرارات خضراء تلتمع أمام عيني .. هنا انما ....

قال فاسيا ذلك مشيرا الى قلبه ، ثم أغمى عليه .

فلما أفاق من غشيته أراد فاسيا أن يتخذ اجراءات حاسمة . كان يتهيأ لأن يرقده فى فراشه بالقوة . ولكن فاسيا احتج احتجاجا عنيفا . انه الآن يبكى ويعض يديه ويصر اصرارا قاطعا على أن ينجز الصفحتين . فسمح له أركادى أن يقترب من المائدة حتى لا يسرف فى معارضته .

قال فاسيا وهو يجلس الى مكتبه :

ـ اسمع .. عندى فكرة .. هناك أمل ..

وابتسم فاسيا لصاحبه ، فكان وجهه الشاحب يضيئه شعاع من أمل حقا • وتابع كلامه يقول :

ـ اليك ما عقدت النية عليه • لن أحمل اليه بعد غد الا جزءا ••• أما الباقى فسألفق من أجله حجة ما •• أقول مثلا انه احترق او انه تبلل أو انه ضاع أو أقول له انني لم أستطع أن أكمله •• ذلك أنني لا استطيع أن أكذب •• سأشرح له كل شيء بنفسي • هل تعلم ؟ ساروى له كل شيء •• سأقول له مثلا : لم أستطع وكفى ! سأحدثه عن حبي • لقد تزوج هو نفسه منذ زمن طويل • سوف يفهمني ! طبعا سأتكلم بهدوء ، واحترام •• وسوف يرى دموعي ، فيتأثر قلبه •

ـ طيب •• اذهب اليه ، قابله ، اشرح له •• ولكن لا فائدة من الدموع يا فاسيا ! لماذا البكاء ؟ أؤكد لك يا فاسيا أنك تثير في نفسي ذعرا رهيبا •

ـ نعم نعم ، سأذهب اليه • أما الآن فدعني أكتب ، دعني أكتب يا أركاشا • لن أسيء الى أحد • ولكن دعني أكتب •

ارتمى أركادى على سريره • واضح أنه فقد اطمئنانه الى فاسيا ، وثقته به • ان فاسيا لن يتورع عن شيء •• لماذا طلب العفو ، وكيف ؟ ليست هذه هي المسألة في الواقع• المسألة هي أن فاسيا لم يف بالتزاماته ، فهو يشعر من ذلك بأنه مذنب في حق نفسه • هو يشعر بأنه عاق مع القدر • يشعر أنه غير جدير بسعادته ، فهذه السعادة هي التي تهز نفسه وتحطمها وتقلبها رأسا على عقب • انه لا يبحث الا عن حجة لينحرف الى هذا الاتجاه • انه لما يثب من دهشته بالأمس • قال أركادى في داخله : « هذه هي المسألة • يجب أن نصالحه مع نفسه ؟ انه بسبيل تأبين نفسه•••

وبعد أن اجتر أركادى ايفانوفتش المسألة طويلا ، قرر أن يذهب منذ الغد الى جوليان ماستاكوفتش دون ابطاء ، فيروى له كل شيء •

وكان فاسيا يكتب • واستلقى أركادى على السرير من جديد ، وقد هذه التعب ، من أجل أن يتأمل فى الأمر مرة أخرى • فاذا هو ينام ثم لا يستيقظ الا فى الفجر •

فلمـا ألقى نظـرة على أركادى ، رأى أنه ما يزال يكتب ، فهتف يقول :

ـ هوه •• أالى الآن ؟

وهب أركادى نحو صـديقه ، فأحاطه بذراعيـه وقاده الى السرير بالقوة • كان فاسيا يبتسم • وكانت أجفانه تطبـق من شـدة التعب • انه لا يكاد يستطيع الكلام • قال :

ـ كنت أنوى من تلقاء نفسى أن أرقد • هل تعلم يا أركادى ؟ عندى فكرة • سأنجز عملى • لقد استعجلت فى الكتابة • ولكننى تعبت الآن • أيقظنى فى الساعة الثامنة •••

وما كاد ينهى جملته حتى نام •

همس أركادى مخاطبا مافرا التى كانت آتية بالشاى :

ـ انه يطلب ايقاظه بعد ساعة • ولكن اياك أن توقظيه ! فلينم عشر ساعات اذا أراد • هل فهمت ؟

ـ فهمت يا سيدى •

ـ لا تحضرى غداء ولا تحدثى ضوضاء • الضوضاء خاصة ••• حاذرى الضوضاء •• اذا سأل عنى فقولى له اننى ذهبت الى المكتب • هل فهمت ؟

ـ فهمت يا سيدى •• فلينم ما شاء أن ينام •• ماذا يضيرنى هذا • ان نوم سيدى يسرنى •• وأنا أحافظ على ما يملكه أسيادى • أما الفنجان الذى كسرته أمس فقرعتنى من أجله ، فلم أكسره أنا ، بل كسرته القطة

ماشكا . كل ما هنالك أننى لم أنتبه اليها .. وحين طردتها كان قد فات الأوان .

ـ هست .. اسكتى !

صرف أركادى الخادمة الى المطبخ ، وطلب منها المفتاح ، فأقفل به الباب ، ثم ذهب الى مكتبه . وتساءل فى الطريق كيف يجب أن يفعل حتى يمثل أمام جوليان ماستاكوفتش ؟ أليس فى هذا افراطاً فى الجرأة منه ؟ ودخل المكتب ، فسأل وجلا هل صاحب السعادة موجود . فقيل له انه غير موجود ، وانه لن يأتى فى هذا اليوم . فأراد أركادى ايفانوفتش فى أول الأمر أن يذهب الى منزله الخاص ، ولكنه سرعان ما انتهى الى أن جوليان ماستاكوفتش لا بد أن يكون مشغولا فى منزله ما دام قد تغيب عن المكتب . لذلك بقى أركادى فى عمله .. بدا له الوقت طويلا طويلا لا ينتهى . حاول أن يستطلع سرا أمر العمل الذى عهد به الى شومكوف، ولكن لم يكن أحد على علم بالموضوع . كل ما كانوا يعلمونه هو أن جوليان ماستاكوفتش شاء أن يكلفه ببعض الأعمال الخاصة فعلا ، ولكن ما من أحد يعرف طبيعة هذه الأعمال التى أراد أن يكلفه بها . وفى حجرة المدخل أوقفه أحد الكتبة وقال له ان فاسيلى بتروفتش شومكوف قد جاء فى نحو الساعة الواحدة فسأل هل أركادى ايفانوفتش وجوليان ماستاكوفتش موجودان . فلما سمع أركادى هذا النبأ استأجر عربة وأسرع الى المنزل قلقا أشد القلق .

كان شومكوف هناك ، يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو مهتاج اهتياجا محموما . فلما ألقى نظرة على أركادى ايفانوفتش بدا عليه أنه هدأ ، أو هو أسرع يخفى اهتياجه على الأقل . وبدون أن يقول كلمة ، جلس الى مكتبه واستأنف الكتابة . كان يلوح عليه أنه يريد أن يتحاشى

أسئلة صاحبه التي أصبحت تزعجه ، اذ كان واضحا أنه اتخذ قراره وألى على نفسه أن يحتفظ به سرا لا يفضى به الى أحد ، لأنه أصبح لا يعول على الصداقة ولا يثق بها . تأثر أركادى تأثرا شديدا . فجلس على السرير وفتح كتابا (هو الكتاب الوحيد الذى يملكه) ، دون أن يحول بصره عن فاسيا المسكين . وظل فاسيا صامتا لا ينطق بكلمة . واستمر يكتب لا يرفع رأسه . وانقضت على ذلك عدة ساعات . أصبحت آلام أركادى لا تطاق . وأخيرا ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، رفع فاسيا رأسه وألقى على أركادى نظرة كابية جامدة . انتظر أركادى ، غير أن عدة دقائق انقضت وفاسيا ما يزال صامتا . صاح أركادى :

ـ فاسيا .

فلم يجب فاسيا . فعاد أركادى يردد وهو ينهض ببطء :

ـ فاسيا ! ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك صاح وهو يقترب من صديقه :

أنهض فاسيا رأسه ثانية ، وحدق الى صاحبه من جديد بنظرة بلهاء جامدة .

قال أركادى لنفسه مذعورا : « هذه نوبة عصبية ! » . وأسرع يتناول أبريق الماء ، وينهض رأس فاسيا ، ويأخذ يصب على جمجمته ماء ، ويبلل صدغيه ، ويفرك يديه . فعاد فاسيا الى وعيه .

صاح أركادى باكيا ، لأنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه :

ـ فاسيا ، فاسيا ، فاسيا ، لا تدع لنفسك أن تهوى ... تذكر .. تذكر ...

وأخذه بين ذراعيه قبل أن يتم جملته . كان فى وجه فاسيا غم

وقلق وألم • فرك فاسيا جبينه ، ثم رفع يديه الى رأسه كأنه يخشى على رأسه أن ينفجر • واستطاع أخيرا أن يقول :

ـ لا أدرى ما الذى بى • أظن أننى أجهدت نفسى • على كل حال، تحسنت الآن ، تحسنت •• هيا يا أركادى •• لا تقلق •• هيا (كذلك ردد وهو يرشق صديقه بنظرة حزينة) •• لا داعى الى القلق •• فيم القلق ؟

هتف أركادى نازف القلب من الرحمة :

ـ ما هذا ؟ أأنت الذى تعزينى وتواسينى الآن ؟ ارقد يا فاسيا •• لا تعذب نفسك فيما لا طائل تحته • ستستأنف عملك بعد •

فردد فاسيا كلام صاحبه يقول :

ـ نعم نعم ، أنت على حق • نعم ، سأرقد • سأرقد • لقد قررت فى أول الأمر أن أنجز العمل دفعة واحدة ، أما الآن فقد غيرت رأيى •• نعم ••

قاده أركادى الى السرير • وقال له بصوت جازم :

ـ اسمع يا فاسيا ، يجب أن تتخذ قرارا حاسما بشأن هذه المسألة • قل لى ماذا قررت •

قال فاسيا وهو يحرك يده باشارة ضعيفة ويحول رأسه :

ـ أواه ••

ـ هيا يا فاسيا ••• يجب أن تتخذ قرارا • لا أحب أن أكون قاتلك • لا أستطيع أن أسكت بعد الآن • أنا أعلم أنك لن تنام ما لم تتخذ قرارا حاسما •

قال فاسيا بلهجة كأنها سر أو لغز :

ـ ليكن ما تريد ، ليكن ما تريد .

قال أركادى لنفسه : « أذعن » . وأردف يلح قائلا :

ـ اتبع نصيحتى يا فاسيا . تذكر ما قلته لك . غدا أنقذك ، غدا أقرر مصيرك .. ولكن فيم الكلام على المصير ؟ لقد بلغت من تخويفى يا فاسيا اننى أخذت أستعمل تعابيرك . أى مصير هذا الذى نتكلم عليه ؟ ما الأمر الا ترهات يسيرة ! أنت لا تريد ان تخسر عطف جوليان ماستاكوفتش ، أليس كذلك ؟ طيب.. لن تخسر عطفه .. سوف ترى.. أنا ...

كان يمكن أن يتكلم أركادى طويلا أيضا ، ولكن فاسيا قاطعه ، انه ينهض عن مكانه ، ويعانق أركادى ، ويقبله . ثم يقول بصوت واهن ضعيف :

ـ كفى .. كفى .. لا تتكلمن بعد الآن فى هذه الأشياء !

ثم دار الى جهة الحائط من جديد .

قال أركادى لنفسه : « يا رب ! يا رب ! ماذا به يا رب ! انه خارج عن طوره تماما . ماذا قرر أن يفعل ؟ لسوف يضيع نفسه ! » .

ونظر أركادى الى صديقه فى حسرة وأسى ؛ ثم قال لنفسه : « لعل الأمور أن تنحل اذا هو مرض . اذا مرض فقد تزول همومه . ويكون فى وسعنا أن ندبر المسألة بعد ذلك على الوجه المناسب . ولكننى أهذر.. آه .. يا رب ؟ »

وفى تلك الأثناء كان يبدو على فاسيا أنه ينام . فاغتبط أركادى من ذلك . قال لنفسه : « هذه علامة طيبة » . وقرر أن يسهر عليه طول الليل . كان نوم فاسيا مضطربا . فهو فى كل لحظة ينتفض ، ويلتفت الى الجهة الأخرى ، ويفتح عينيه . وغلبه التعب آخر الأمر ، فبدا فى نحو

الساعة الثانية من الصباح انه يغيب فى نوم عميق • فنام عندئذ اركادى على كرسيه مسندا ذراعه الى المنضدة •

فراى فيما يرى النائم حلما غريبا مقلقا • كان يتراءى له انه غير نائم ، وان فاسيا ما يزال راقدا على السرير • ولكن الامر الغريب هو أنه كان يحس ان فاسيا يمثل تمثيلا ، وانه يحاول ان يخدعه ، فها هو ذا ـ أى فاسيا ـ ينهض عن سريره صامتا ويتسلل نحو المكتب على رءوس الاصابع مراقبا صاحبه بطرف عينه •

شعر أركادى عندئذ بالم شديد يقبض قلبه • احزنه واشجاه أن يرى فاسيا لا يثق به بل يخفى عنه أفكاره • أراد أن يوقفه ، أراد أن يزجره ، أراد أن يرده الى السرير عنوة •• فاذا بفاسيا يطلق صرخة هى آخر زفرة من زفراته ، واذا باركادى يحمل الى السرير جثة ميتة لا انسانا حيا • تبلل جبين أركادى بالعرق ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا حتى ليكاد ينفجر • فتح عينيه فاذا هو يرى فاسيا جالسا الى المنضدة أمامه يكتب •

ظن أركادى أنه ما يزال يحلم ، فنظر الى السرير ، فلم يجد عليه فاسيا • فنهض بوثبة واحدة وهو ما يزال تحت وطأة الكابوس الذى ألم به أثناء نومه • لم يتحرك فاسيا ، بل ظل يكتب • وفجأة لاحظ أركادى ، مذعورا ، أن صاحبه يجرى على الورق ريشة بغير حبر ، وأنه يقلب صفحات بيضاء مسرعا فى ملء الصفحات اسراعا رهيبا ، كأن هذا خير وسيلة لانجاز العمل الذى يجب عليه أن ينجزه • قال أركادى ايفانوفتش لنفسه وهو يرتعش : « لا •• ليس هذا الا نوبة عصبية • » •

هتف يقول وهو يمسك صديقه عن كتفه :

ـ فاسيا ، فاسيا ، أجبنى !

ولكن فاسيا ظل صامتا لا يتكلم ، وظل يرسم على الورق خطوطا لا ترى ، بريشة من غير حبر .

قال دون أن يرفع بصره :

ـ أخيرا استطعت أن اعجّل كتابتي .

أمسك أركادى يده ، وانتزع منه الريشة .

أطلق فاسيا أنة ضعيفة . وتهاوت ذراعاه . ورفع عينيه صوب أركادى . وحرّك جبينه بحركة حزينة يائسة كأنه يحاول أن يزيح ثقلا ضخما يسحق كيانه كله . ثم خفض رأسه ببطء ، شارد الذهن .

صاح أركادى :

ـ فاسيا ! فاسيا !

انقضت لحظات قبل أن ينظر اليه فاسيا . كانت عيناه الزرقاوان تفيضان دموعا ، وكان وجهه الحلو يعبر عن عذاب لا يغالب ... وكان يتمتم ببعض كلام .

سأله أركادى وهو يميل عليه :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

فهمس فاسيا يقول :

ـ لماذا يحقدون علىّ ؟ ماذا صنعت بهم ؟

صاح أركادى وهو يعقف ذراعيه بحركة يائسة :

ـ ما بك يا فاسيا ؟ مم تخشى ؟

قال فاسيا وهو يحدق الى عيني صديقه :

ـ لماذا يريدون أن يجندونى ؟ لماذا ؟ ما هى جريمتى ؟

ـ انتصب شعر أركادى على رأسه • لم يشأ أن يصدق أذنيه • ظل ماثلا على صديقه وقد استبد به يأس رهيب شديد •

ثم ثاب الى رشده بعد دقيقة فقال لنفسه : « ليس هذا الا عرضا طارئا ثم ينقضى • » • قال لنفسه ذلك وقد اصفر وجهه وارتجفت شفتاه• وأسرع يرتدى ثيابه كالمحموم ، لأنه يريد أن يركض باحثا عن طبيب • ناداه فاسيا فجأة • فهرع اليه ، وقبله قبلة أم يريدون أن ينتزعوا منها ابنها •••

ـ أركادى •• أركادى •• أرجوك خاصة أن لا تبلغ أحدا •• هل تفهمنى ؟ ان الذنب ذنبى •• فيجب أن أتحمل نتائجه وحدى •

ـ هيا يا فاسيا ، هيا ، ثب الى رشدك ، عد الى نفسك ، ابرأ مما بك!

تنهد فاسيا ، وأخذت عبرات صامتة تسيل على خديه •

ـ لماذا نقتلها هى ؟ ماذنبها هى المسكينة ؟ •• انها خطيئتى أنا ••• خطيئتى أنا !

كذلك قال فاسيا بصوت مخنوق يمزق القلب حزنا •

وصمت بضع لحظات • ثم همس يقول وهو يهز رأسه المسكين :

ـ الوداع يا حبيبتى ، الوداع يا حبيبتى !

ثاب أركادى الى نفسه ، وأراد أن يركض الى الطبيب • فلما لاحظ فاسيا حركة صاحبه قال :

ـ هيا بنا •• لقد آن الأوان •• هيا بنا يا صاحبى •• أنا مستعد • اصحبنى •

ثم لم يقل شيئا ، بل ألقى على أركادى نظرة حزينة مرتابة •

قال أركادى يكرر فاقدا صوابه ، وهو يتناول قبعته ليمضى باحثا عن الطبيب :

ـ فاسيا .. لا تتبعنى .. أرجوك .. أتوسل اليك .. انتظرنى هنا . سأعود حالا .

فلم يلبث فاسيا أن قعد . كان يبدو وديعا طيعا ، ولكن قرارا يائسا كان يسطع فى نظرته . عاد أركادى أدراجه ، فأخذ الموسى التى كانت مسلولة على المنضدة ، وألقى نظرة أخيرة على صديقه المسكين ، ثم أسرع يخرج راكضا .

كانت الساعة قريبة من الثامنة . وكان ضوء النهار قد أخذ ينير الغرفة منذ وقت .

لم يجد أركادى أحدا . طاف المدينة ساعة بكاملها ، ولكن جميع الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين الذين يسألهم كانوا قد خرجوا، بعضهم الى دوائرهم ، وبعضهم الى أعمالهم . غير أن واحدا من الأطباء كان قد أخذ يستقبل مرضاه . سأل الطبيب خادمه طويلا عن نيفيدفتش : من أرسله ولأى غرض جاء ، حتى لقد أراد أن يوصف له هذا الزائر المبكر . ثم صرح أخيرا بأن أعماله كثيرة ، فلا يستطيع الذهاب الى المريض، وبأن المرضى الذين هم من هذا القبيل يجب نقلهم الى المستشفى.

فحزن أركادى أشد الحزن ، لأنه لم يكن يتوقع حلا كهذا الحل ، فاستغنى عن الطب والأطباء ، واندفع راجعا الى المنزل ، يرتجف خوفا على فاسيا ، ودخل البيت راكضا . كانت مافرا تكسر حطبا لاشعال المدفأة كأن شيئا لم يحدث . فلما صار أركادى فى الغرفة لم يجد فاسيا . فان فاسيا كان قد خرج .

تساءل أركادى متجمدا من الذعر : « أين هو المسكين ؟ الى أين

يمكن أن يكون قد ذهب ؟ » . وأخذ يسأل مافرا ، لكن المرأة الطيبة لا تعلم شيئا ، بل انها لم تسمع خطواته حين خرج . هرع نيفيدفتش يذهب الى جماعة كولومنا . الله يعلم لماذا خطر بباله أنه قد يجد فاسيا هناك .

وصل اليهم فى نحو الساعة التاسعة والنصف . وكانوا جاهلين بكل شيء . فأخذ أركادى يسألهم هل فاسيا عندهم ، وقد لاح عليه التردد والهلع .

كادت العجوز تتهاوى ، فجلست على الأريكة . وأخذت ليزانكا تسائله مرتجفة من قمة الرأس الى أخمص القدم . ولكن ماذا كان يستطيع أركادى أن يقول ؟ ها هو ذا يلفق قصة لم يشأ أحد أن يصدقها طبعا . ثم انصرف كما جاء ، تاركا أهل الدار فى حزن شديد وقلق عظيم . أسرع الى مكتبه حتى لا يصل متأخرا عن الميعاد تأخرا كبيرا . وخطر على باله أثناء الطريق أن فاسيا قد يكون عند جوليان ماستاكوفتش . هذا جائز . حتى لقد فكر أركادى فى ذلك قبل أن يذهب الى كولومنا .

لما وصل بالعربة أمام منزل صاحب السعادة أراد أن يتوقف ، ولكنه سرعان ما غير رأيه وتابع طريقه . لقد قرر أن يستطلع الأمر فى المكتب أولا . فاذا لم يطلع هنالك على شيء ، عاد يمثل أمام صاحب السعادة ، ليبلغه ما حدث لفاسيا فى أقل تقدير . ذلك أنه لا بد من تقديم تقرير لأحد .

فما ان صار فى حجرة المدخل حتى رأى زملاءه يحيطون به ويتجمعون حوله ، وأكثرهم من رتبته ، يسألونه عما جرى لفاسيا . وأبلغوه جميعا فى الوقت نفسه أن فاسيا أصبح مجنونا ، وأن قوام جنونه اعتقاده بأنه سيجند فى فرقة تأديبية من الجيش لاهماله عمله .

أجاب أركادى ايفانوفتش جميع الناس ، أو قل انه لم يجب أحدا

بعينه • فانه لم يكن يريد الا شيئا واحدا هو أن يدخل المكاتب • فلما طاف بمختلف الدوائر عرف أن فاسيا موجود عند جوليان ماستاكوفتش، وأن كثيرا من الموظفين هناك ، وأن اسبر ايفانوفتش قد ذهب الى هناك أيضا • وسأله واحد من كبار الموظفين الى أين هو ذاهب وماذا يريد ، فنطق ببضع كلمات ذاكرا اسم فاسيا ، واتجه رأسا الى غرفة الرئيس الكبير • كان صوت جوليان ماستاكوفتش يصل الى سمعه • سأله أحدهم أمام الباب :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

وانه يتهيأ لأن يرجع القهقرى ، اذا هو يلمح فاسيا المسكين من خلال الباب المشقوق ؛ فلا يسعه الا أن يدفع المصراع ، فيتسلل الى الغرفة بغير قليل من العناء • كان جو مضطرب يسيطر على الغرفة : ان جوليان ماستاكوفتش يبدو منزعجا أشد الانزعاج ، يحيط به جميع أصحاب الرتب العالية من الموظفين ، وهم جميعا يتناقشون ثم لا يصلون الى اتخاذ قرار• وكان فاسيا منتحيا جانبا • انقبض صدر أركادى حين رآه على هذا الحال• كان فاسيا أبيض الوجه من فرط الشحوب ، منتصب القامة رافع الرأس مشدود الساقين ضاما ذراعيه الى الفخذين ، تماما كما يفعل المجندون أمام رئيسهم • وكان شاخصا ببصره الى عينى جوليان ماستاكوفتش • وسرعان ما لوحظ وجود نيفيدفتش • فاذا بواحد يجهل أن الصديقين يسكنان معا ، يقترب من صاحب السعادة فيلفت نظره اليه • فاقتيد أركادى الى الرئيس • وفيما كان أركادى يتهيأ للاجابة على الأسئلة التى يطرحها عليه جوليان ماستاكوفتش ، نظر الى وجهه فلاحظ أنه يعبر عن تأثر وعطف صادق • فاذا هو يشعر بقشعريرة تسرى فى جسمه ، ثم اذا يأخذ يبكى منتحبا كطفل • بل لقد فعل أكثر من ذلك : وثب نحو الرئيس الكبير ، فتناول يده وحملها الى شفتيه يقبلها ويغرقها بالدموع • فاضطر

جوليان ماستاكوفتش نفسه ان يسحب يده بسرعة ، وأن يجرى حركة خفية ، ويقول : « هيا يا عزيزى هيا .. أرى أن لك قلبا طيبا . » . كان أركادى ينتحب ويرشق الحضور بنظرات متوسلة ضارعة . كان يبدو له أنهم جميعا كاخوةٍ لصديقه المسكين فاسيا ، وأنهم جميعا متألمون لحاله ، حزانى عليه .

سأله جوليان ماستاكوفتش قائلا :

ـ ولكن كيف حدث له هذا ؟ لماذا أصبح مجنونا ؟

فتمتم أركادى يقول :

ـ اه .. اعترافا بالجميل .

ثم لم يستطع أن يزيد على ذلك شيئا .

دهش جميع الحضور حين سمعوا هذا الجواب ، ووجدوا أنه أمر ن يفقد انسان عقله اعترافا بالجميل . وشرح أركادى

ع .

قال جوليان ماستاكوفتش أخيرا :

ـ مسكين ... مع أن الأمر الذى عهدت به اليه لم يكن لا هاما ولا مستعجلا ! هذا انسان ضاع فى سبيل لا شىء ... طيب .. خذوه .

واتجه جوليان ماستاكوفتش بالكلام بعد ذلك الى أركادى فألقى عليه بعض الأسئلة .

قال مشيرا الى فاسيا :

ـ هو يرجو أن لا يذكر من الأمر شىء لاحدى الفتيات ، فهل هى خطيبته ؟

فقدم أركادى بعض الايضاحات . وكان فاسيا أثناء ذلك يبدو فريسة

فكرة تحاصر ذهنه • كان كمن يبذل جهدا كبيرا من أجل أن يتذكر شيئا خطير الشأن ، بل لا بد منه ولا غنى عنه في هذه اللحظة • وكان في بعض الأحيان يطوف ببصره على الحضور كأنه يأمل أن يسعفه احدهم فيذكره بما كان يحاول أن يتذكره • وتوقفت نظراته على أركادى • فاذا بشعاع من أمل ينير وجهه فجأة • واذا هو يتقدم الى الأمام خطوة بقدمه اليسرى ، ثم يسير بضع خطوات سيرا عسكريا ، لا يفوته حتى أن يقرع الأرض بكعب قدمه اليمنى كما يفعل الجنود حين يقتربون من ضابط ناداهم • فأخذ الجمع ينتظر ما سيعقب ذلك • قال فاسيا بصوت متقطع :

ـ يا صاحب السعادة ، ان بى عاهة جسمية ، فأنا ضعيف وقصير القامة ولا أصلح للخدمة العسكرية •

فشعر جميع من فى الغرفة بانقباض فى قلوبهم ، حتى أن جوليان ماستاكوفتش نفسه لم يملك أن يحبس دمعة سالت من عينيه رغم صلابة طبعه وقوة ارادته • قال وهو يشير بيده :

ـ خذوه ••

قال فاسيا بصوت خافت :

ـ الى الجبهة •••

ثم استدار الى الوراء يسرة • وخرج من الغرفة •

أسرع جميع من يهمهم مصيره يجرون وراءه • وتبع أركادى الآخرين • أجلس فاسيا فى قاعة الانتظار ، وأخذ المختصون يعدون أمرا بقبوله فى المستشفى ، ويسألون عن العربة التى ستحمله اليه •

ان فاسيا صامت لا يتكلم • انه يبدو مشغول البال الى أقصى حد • وهو يحيى جميع من يعرفهم بانحناءة يسيرة كأنه يودعهم ، وينظر الى

الباب فى كل لحظة منتظرا أن يقال له : آن أوان الانصراف • ان حلقة ضيقة من الناس تحيط به • وهم جميعا يهزون رءوسهم حسرة ، ويرثون لحاله ، ويحزنون لما آل اليه ؟ وما أكثر الذين تأثروا أشد التأثر لقصته التى شاعت فى المكتب كله فجأة •• فبعضهم يناقش الأمر ، وبعضهم يمدح فاسيا ويعبر عن أساه • قالوا انه كان فتى هادئا متواضعا يعد بمستقبل مشرق • وقالوا انه كان يحرص على الاستزادة من العلم وكان يعمل جاهدا فى سبيل استكمال ثقافته • وقال أحدهم : « انه بوسائله وحدها انما استطاع أن يخرج من ظرف وضيع جدا • » • وأشاروا ، بكثير من الحنان ، الى العطف الذى كان يحمله له صاحب السعادة • وأخذ بعضهم يشرح لماذا تحاصر ذهن فاسيا فكرة زجه فى الجيش عقابا له على عدم انجازه عمله • قالوا ان الفتى ينتمى فى أصله الى طبقة الأقنان ، وان الفضل فى وصوله الى الحصول على رتبة موظف انما يرجع الى جوليان ماستاكوفتش وحده • ذلك أن جوليان ماستاكوفتش قد رأى فيه علائم موهبة حقيقية ، كما رأى فيه طواعية كاملة ، وأدبا جما ••• الخلاصة أنهم تكلموا كثيرا وتناقشوا طويلا • وكان من أكثر الناس تأثرا رجل طيب قصير القامة جدا ، أقصر كثيرا من متوسط طول الرجال • انه أحد زملاء فاسيا ؟ وما هو الآن فتى فى ريعان الشباب • فلعله بلغ الثلاثين من عمره • كان شاحب الوجه كميت • كانت أعضاؤه جميعها تختلج ، وكان يبتسم ابتسامة غريبة ••• ربما لأن أى حادث رهيب أو أى أمر فاضح يمكن أن يملأ قلوب شهوده خوفا شديداً ولذة عجيبة فى آن واحد • كان الرجل القصير يركض بين الجماعة التى تزدحم حول فاسيا من أقصاها الى أقصاها ، وكان لقصره ينتصب على رءوس الأصابع ، متشبثا بزر هذا أو ذاك من زملائه (الذين كان يحق له أن يقاربهم) ؟ وما ينفك يردد أنه يعرف كيف وقع ما وقع ، غير أن الأمر معقد ، ولا يمكن ترك الأمور على ما هى عليه•

وانتصب على رءوس أصابعه مرة أخرى فهمس فى أذن أحدهم ببعض الكلام ، ثم هز رأسه عدة مرات ، ومضى يهرول الى مكان آخر .

وانتهى أخيرا كل شىء : جاء الحارس والممرض . فاقتربا من فاسيا ، وقالا له ان أوان الانصراف قد آن . فنهض فاسيا ببطء ، واضطرب بعض الاضطراب ، ومضى يتبعهما ناظرا حوله . كان يبحث عن أحد . هتف أركادى باكيا ناشجا : « فاسيا ، فاسيا ! » . فتوقف فاسيا ، واستطاع أركادى أن يشق لنفسه طريقا الى صاحبه . فتعانق الصديقان آخر عناق ... كان منظرا محزنا يمزق القلب . أية نازلة وهمية كانت تسيل عبراتهما ؟ لماذا كان يبكيان ؟ أين هى تلك النازلة ؟ لماذا لم يستطيعا أن يتفاهما ؟

قال فاسيا لصاحبه وهو يدس فى يده ورقة مطوية :

ـ خذ .. خذ هذا .. خذ هذا .. احتفظ لى به . والا أخذوه منى. جئنى به بعد . جئنى به . احتفظ لى به .

ولم يستطع فاسيا أن يكمل كلامه . فقد نودى . فهبط السلم مسرعا وهو يحيى الناس ويحنى رأسه . ان ألما قاتلا كان يرتسم فى وجهه . ووُضع فى العربة أخيرا ، وسارت العربة .

فض أركادى الورقة على عجل . انها الخصلة السوداء من شعر ليزا ، التى كان يحملها فاسيا دائما معه . انبجست دموع مرة أخرى من عينى أركادى ، وتمتم يقول : « مسكينة أنت يا ليزا » .

فلما انصرف الموظفون ذهب أركادى الى جماعة كولومنا . لا داعى الى وصف ما جرى هنالك ! حتى الصغير بتيا الذى لم يفهم كثيرا ما وقع لفاسيا الطيب انزوى فى ركن وغطى وجهه بيديه وطفق يبكى بكاء يمزق القلب .

كان الليل قد أخذ يهبط حين سار أركادى فى طريق العودة الى البيت • فلما وصل الى ضفة نهر تيفا ، توقف لحظة ، فحدق الى الأفق البعيد عند منحدر النهر • هنالك ، كان الهواء الكثيف والضباب البارد الكابى يلتهبان فجأة بأواخر الشعل من أول الغروب • كان الليل يهبط على المدينة • وكانت صفحة الماء المتجلدة المحدودبة المخددة بحلقات من ثلج قاس تعكس على كل امتدادها الواسع أواخر أشعة الشمس الغاربة تراقصا متلألئا على صفائح الجليد التى لا يحصى عددها •

كانت درجة الحرارة قد هبطت الى العشرين تحت الصفر ••• ان بخارا أبيض يحيط بالخيول المتوقفة عجزا عن متابعة السير ، وبالناس الماشين بخطى سريعة • والهواء الكثيف يرجع أيسر صوت • وفوق سطوح جميع المنازل المصطفة على الأرصفة تتصاعد فى السماء الباردة أعمدة عالية من دخان ، يختلط بعضها ببعض ، ثم يفترق بعضها عن بعض • لكأن مبانى أخرى كانت تنبثق فى الجو فتشكل مدينة جديدة فوق المدينة القديمة • كان العالم ـ بجميع ساكنيه ، الأقوياء منهم والضعفاء ، وبجميع مساكنه ، أكواخ الفقراء منها وقصور العظماء على هذه الأرض ـ كان هذا العالم كله يبدو فى تلك الساعة من المساء أشبه بسراب عجيب ، أشبه بحلم مصيره الى الزوال هو أيضا ، مصيره الى أن يتبخر دخانا فى السماء الزرقاء الداكنة •

وهذه فكرة غريبة تنبثق فجأة فى ذهن رفيق المسكين فاسيا ، فى ذهن الرفيق الذى أصبح الآن وحيدا • ارتعش أركادى • كأن دما أشد حرارة يتدفق الآن الى قلبه ، تحركه عاطفة قوية لم يعرفها قبل اليوم • لقد بدا له أنه يفهم الآن كل ذلك القلق الذى دفع فاسيا الى الجنون ، ويدرك السبب الذى جعل فاسيا يفقد عقله من عجزه عن احتمال سعادته•

اختلجت شفتا أركادى ، وسطع لهيب فى عينيه .. واصفر وجهه ، وشعر أنه عرف فجأة ، فى هذه اللحظة نفسها ، حقيقة جديدة .

أصبح أركادى حزين النفس متجهم الطبع . فقد مرحه القديم . كره منزله ، فاتخذ لنفسه سكنا آخر . ولم يطق أن يذهب بعدئذ الى جماعة كولومنا . وبعد سنتين صادف ليزانكا فى الكنيسة . كانت الفتاة قد تزوجت . هذه مرضعة تسير وراءها حاملة على ذراعيها طفلا صغيرا . حياها وحيته ، ولكنهما تجنبا الحديث عن الماضى . قالت ليزا انها سعيدة ولله الحمد ، وأن العسر قد زاولها ، وان زوجها رجل طيب شهم ، وانه يحبها .. ولكن عينيها فاضتا بالدموع فجأة قبل أن تكمل جملتها ، وتحطم صوتها ، فحولت وجهها ومالت على عمود من أعمدة الكنيسة تخفى ألمها ..